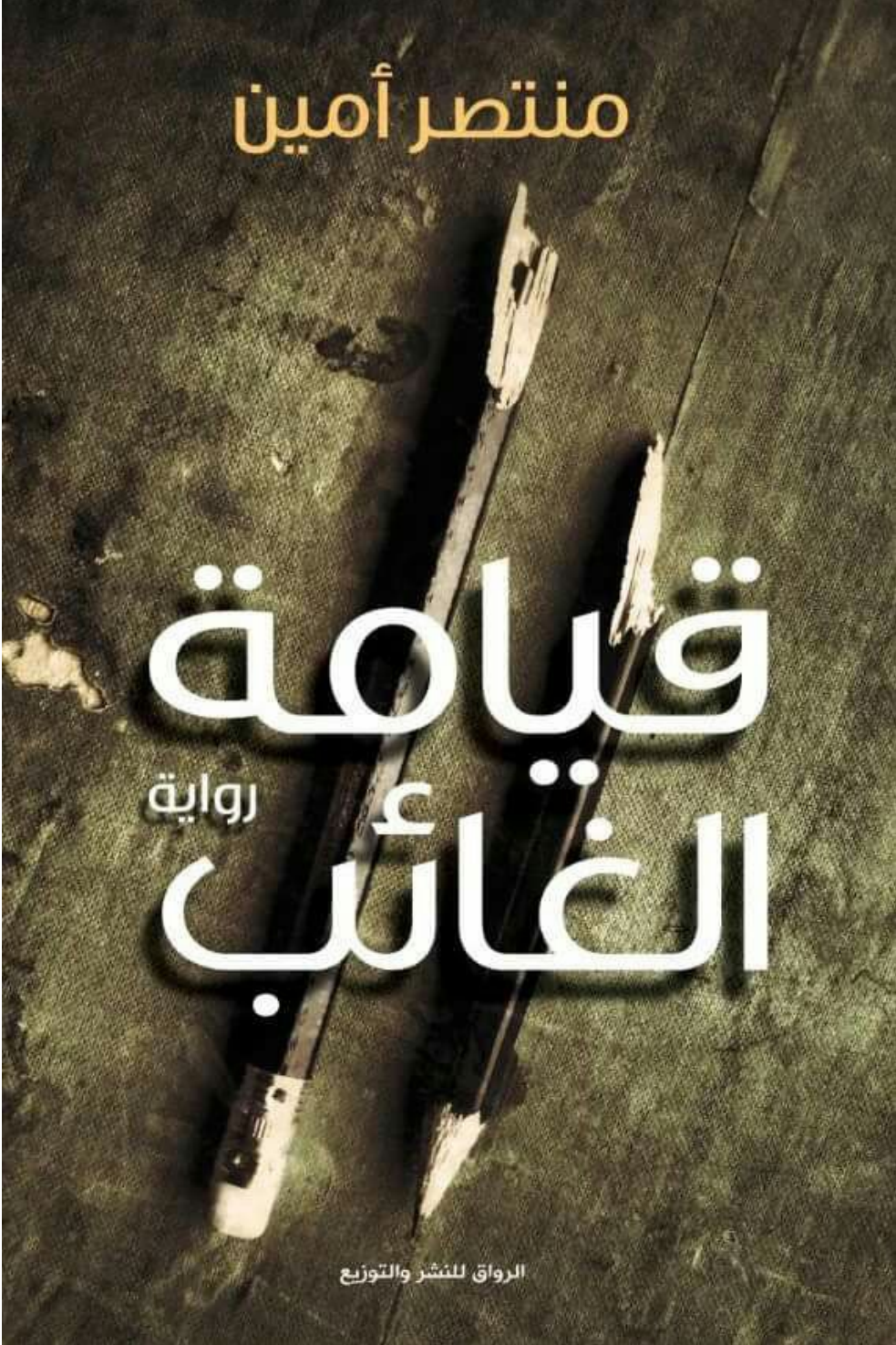
منتصر أمين
قيامة
رواية
الغائب
الرواق للنشر والتوزيع

قيامة الغائب

قيامة الغائب

منتصر أمين

■ الطبعة الأولى ..... يناير 2018

الغلاف: أحمد مراد

التصحيح اللغوي: محمد حمدي

رقم الإيداع: 25637 / 2017

الترقيم الدولي: 978 – 977 – 824 – 017 – 7

جميع حقوق الطبع محفوظة

للنشر والتوزيع

186 عمارات امتداد رمسيس 2 – أمام أرض المعارض – مدينة نصر

هاتف: 0220812006

rewaq2011@gmail.com

facebook.com/Rewaq.Publishing

قيامة الغائب

رواية

منتصر أمين

الرواق للنشر والتوزيع

إهداء

لِكُل وَاحدٍ مِنا في حَقيقةِ الأمر حَياتان..

وَاحِدة يَعتقدُ الناسُ أنه يَعيشها..

وأخرى لَا يَعلَم أحد عَنها شَيئًا..

منتصر أمين

هؤلاء الذين فشلوا في تعلم دروس الماضي

ملعونون بتكرار أخطائهم

ـ جورج سانتايانا ـ

(١)

«سمعتهم يقولون إن هذا هو آخر يوم لي هُنا»..

ارتطم رأسي بشدة بالأرضية المعدنية للميكروباص، تردد صداها في قوة تزلزلت لها جنبات عقلي.. الطريق يبدو وعرًا من تلك المطبات، تكاد تتحطم لها عظام رأسي، مع هذه السرعة المخيفة التي يسير بها الميكروباص..

«أين حياة؟ أين ابنتي؟!»

لا أذكر شيئًا مما حدث تقريبًا، فقط تلك الضربة على مؤخرة رأسي.. ثم ظلام تام..

كنت قد أنهيت كلمتي في مؤتمر الأدباء العرب بفندق (فيرمونت) بمصر الجديدة، ثم توجهت للبار القريب من بهو الاستقبال.. شربت كأسين من الويسكي في عجالة، ثم جاءتني تلك المكالمة المشؤومة.. تخبرني باختفاء ابنتي، «حياة».. صعدت إلى غرفتي كالمجنون بحثًا عن

مفاتيح سيارتي.. ما إن أغلقت بابها من خلفي حتى فوجئت بذلك الكريه، الذي لم أره من قبل.. يجلس على المقعد المواجه للباب، ينظر نحوي وابتسامة صفراء تعلو وجهه.. هممت بالصياح في وجهه إلا تلك الضربة الملعونة قذفتني في جوف الظلام..

حين أفقت فشلت في تحديد ما أصابني بالضبط.. أحسست بشريط لاصق يكمم فمي، وحين حاولت تحريك شفتي شعرت بحريق اضطرمت نيرانه في شاربي ولحيتي.. وجدتني متكومًا على جانبي فوق أرضية معدنية صلبة، لا تتوقف عن الحركة والاهتزاز.. يداي وقدماي مربوطة بقيد بلاستيكي، حاد الحواف يكاد يقطع لحمي.. وذلك الكيس الأسود ذو الرائحة النفاذة، المحشور رأسي داخله، يمنعني من الرؤية ويكاد يخنقني..

انفصلت كل حواسي عن العالم الخارجي، عدا واحدة فقط.. حاسة السمع، تمكنت بها من الاستماع للقليل.. كلمات معدودات، غمغم بها هؤلاء المجهولون فيما بينهم، جعلتني أدرك أني في ميكروباص.. ساد بعدها الصمت فيما بينهم، لم يقطعه سوى صوت الهواء الداخل من النوافذ المفتوحة على ما أظن، وصوت حفيف الرمال أسفل إطارات الميكروباص..

طال طريقنا غير الممهد، وخمنت أننا غادرنا القاهرة بعد أن خفت الضوضاء من حولنا.. توقف الميكروباص بغتة فارتطم عمودي الفقري بشيء معدني لم أتبينه، ثم سمعت صوتًا أجشَّ يقول في غلظة:

ـ أحضروه.

سمعت الباب الجرار يُفتح بقوة، ثم شعرت بيد تجذبني من ملابسي بعنف بالغ.. ارتطمت كتفي بأحد المقاعد، وحين حاول أحدهم إيقافي اصطدم رأسي بسقف الميكروباص المنخفض.. تألمت في صمت، بينما سحبني أحدهم من ذراعي إلى حيث لا أعلم..

كنت أشعر بالرمال ثقيلة أسفل قدمي، أشم بصعوبة رائحتها المميزة مختلطة بروائح كثيرة عجزت في بادئ الأمر عن معرفة طبيعتها.. بعد فترة، سمعت صرير باب معدني يفتح.. أحسست بدفعة من خلفي، سقطت من قوتها على وجهي.. ثم بقسوة رفستني قدم في جانبي؛ فانقلبت على ظهري ثم أحسست بأحدهم يقترب مني.. بعنف وغلظة نزع هذا المجهول الكيس الأسود من فوق وجهي.. تكومت على نفسي؛ خوفًا من أن يعتدي عليّ هذا المجهول الغامض.. لكنه تركني وغادر، علمت بانصرافه من صوت الصرير البغيض حين علا مرة أخرى.. شهقت بقوة؛ فللمرة الأولى أتنفس بِحُرية منذ فترة ظننتها لن تنتهي..

فتحت عيني بحذر محاولاً استكشاف هذا المكان، لكني لم أر شيئًا، كان الظلام يحيط بالمكان الذي تركني متكومًا فيه، ورائحة بشعة تسيطر على الهواء العطن الثقيل.. بعد وهلة، سمعت أصواتا مختلطة ما بين نهيق وخوار ونقنقة؛ فخمنت أنها رائحة روث بهائم مختلطة بفضلات دجاج.. ملمس الأرض كان رخوًا مقرفًا، يبعث على الغثيان.. لكني تمالكت نفسي، محاولاً أن أفكر في طريقة للخروج من هذا المأزق المخيف..

لم يكن لدي أعداء، ولا أموال عندي تغري بطلب فدية.. لماذا أنا؟! تملكتني الحيرة حتى بلغت أقصى مداها.. أنا كاتب، مجرد شخص يسطر

ما يخطر على باله من أفكار.. يصوغها في شكل ملهاة أو مأساة، تجتذب أولئك الذين يبحثون عن السلوان في خضم حياتهم البائسة..

بدأت عيناي تتعودان الظلام قليلاً؛ فبانت أمامهما الغرفة التي احتجزوني فيها.. كانت ضيقة جدًا، جدرانها كالحة لم يتم طلاؤها.. انتبهت على ضوء باهر غشّى عينيّ فجأة، وصرير الباب المعدني يعلو من جديد.. من بين عيني شبه المغمضتين رأيت رجلاً ضئيل الحجم، له لحية كثة.. يحمل في يمينه رغيفًا من الخبز، وفي يسراه زجاجة من الماء.. اقترب من رقدتي بجلبابه الأبيض وخطواته الهادئة؛ فبانت عرجة خفيفة في قدمه اليسرى ثم وضع حِمْله بجواري.. انحنى بجذعه نحوي، وبحركة مباغتة انتزع الشريط اللاصق من فوق فمي.. صرخت من شدة الألم، لكني حاولت أن أبدو متماسكًا أمامه..

من بين الضوء لاحظته يرميني بنظرات متفحصة لفترة، ثم مرر أمام فمي زجاجة الماء.. أشحت بوجهي بعيدًا رغم عطشي الشديد.. مط شفتيه المختبئتين خلف شاربه ولحيته في قرف ثم مزق قطعة من الرغيف الذي يحمله، حاول وضعها في فمي.. زممت شفتي بقوة رافضًا تناولها.. كنت قد اتخذت قراري بالامتناع عن الطعام والشراب حتى أعرف ماذا يحدث من حولي.. لمحته من طرف عيني يضع الخبز على الأرض، ويمد يده اليسرى في جيب جلبابه الأبيض مخرجًا منه بضع تمرات.. حاول وضع إحداها في فمي، لكني واصلت الصمود والرفض.. فما كان منه إلا أن ضغط بأصابعه الرفيعة على أنفي، مانعًا عني الهواء تمامًا.. فتحت فمي عن آخره محاولاً الحصول على الهواء؛ فألقى الرجل الأعرج بالتمرة فيه.. كدت أختنق بعد أن توقفت التمرة في حلقي،

لكني نجحت بعد عناء في بلعها ثم نظرت له متحديًا.. هز رأسه في حزن، وسمعت صوته ذا النبرة الرفيعة يقول بهدوء اقشعر له جسدي:

ـ ليس من شيمنا إهانة الأسرى، ستأكل وتشرب حتى يجتمع المجلس لإصدار الحكم الشرعي في حقك.

هممت بالرد عليه بعد أن صعقتني عبارته الغريبة.. لكنه وقف وغادرني في هدوء، بمشيته العرجاء تمامًا كما أتى.. تركني من جديد وحدي أسيرًا لهذه الظلمة المقيتة، تنهشني الأفكار والهواجس.. كانت عبارته تحمل العديد من علامات الاستفهام والتعجب، لكنها كانت أيضا تمثل لي كابوسًا مفزعًا.. لا بد أن الخاطفين جماعة دينية! ولكن مالي أنا بهم؟! لم تكن كتاباتي، ولا موقفي المعلن أبدًا يناصبهم العداء.. حقًا كنت أرفض أفكارهم وتوجهاتهم، لكني لم أجاهر بذلك الرفض من قبل.. حتى في أثناء ثورة يناير، كنت مع الشباب، لم أنحز لمعسكر الإخوان ولم أقف في جانب أنصار النظام القديم.. اللعنة على السياسة، لديها القدرة على تدنيس وإفساد كل شيء طاهر وبريء..

لا أعلم لماذا تمثل طيفها أمامي الآن.. ربما تكون هي النقطة المضيئة الوحيدة التي أنارت عتمة حياتي البائسة.. كدت أبكي بعد أن بدأت ذكراها تضرب عقلي بقسوة.. لكني تماسكت وفضلت أن أستعيد معها ما كان، لعله يمنحني بعض القوة لمواجهة ما أنا مقبل عليه..

فمنذ زمن بعيد كنت أحبها، لكن الفراق قدر.. حينها أصاب قلبي ما يشبه السرطان؛ فأفسد روحي.. التهمني الحزن من الداخل، إلى أن أفرغني من كل عاطفة وإرادة.. ظننت في بادئ الأمر أن الأيام ستكون

كفيلة بلملمة الجراح.. لكن عوضًا عن انفراج الأزمة وتخفيف الحزن، استفحل الأمر..

في الأسابيع الأولى التي تلت الفراق، جعلني الخوف من الانهيار دائم الحذر.. أرغمني على مقاومة اليأس والمرارة بضراوة.. ومع مرور الأيام مات خوفي أيضًا، ومعه انمحت أبسط رغبة لدي في الحفاظ على أي مظهر من مظاهر الحياة.. تحول حزني إلى ما يشبه السوس، أخذ ينخر في روحي وجسدي بلا رحمة.. ماسحًا أي لون من ألوان الحياة، مطفئًا كل بارقة ولو ضئيلة في أمل.. أصابني صداع مزمن، لم أجد له علاجًا سوى إدمان المسكنات.. وعند أدنى محاولة للتحكم في وجودي، كان الصداع اللعين يتحول إلى أفعى سوداء، لا تتوقف عن عضي.. تبثني مع سمها جرعة خبيثة من الذكريات المؤلمة.. ابتسامتها، صوت ضحكتها، كفيها الناعمتين تداعبان شعري، عينيها البنيتين الواسعتين..

وإذا بالذكريات نفسها تغدو أقل حدة، وصار كل شيء غائمًا، أصبحت أقضي أيامي ممددًا على الأريكة.. مختبئًا وسط ظلمة اليأس، دافنًا أحزاني ووحدتي فيها.. لا يؤنسني في هذه العتمة سوى الكوابيس، التي اعتدت رفقتها.. أستيقظ منها مرتجفًا، أتصبب عرقًا.. لا تستحوذ عليّ سوى رغبة واحدة، ألا وهي الهروب من هذا الواقع البغيض بأي وسيلة.. حتى إن كان ذلك بالموت..

مرت الأيام والشهور في هذا السبات الغائم دون أن أنتبه لذلك.. أيام وشهور لا معنى لها ولا جوهر.. حزني يزداد وطأة، ولم أكتب سطرًا واحدًا منذ خمس سنوات.. أصبح دماغي يابسًا بعد أن هجرتني الكلمات.. نضب خيالي، وتخلت عني الرغبة في الكتابة..

هززت رأسي بعنف رافضًا تلك الذكريات السوداء، غمغمت في ضيق:

«لم يعد لذلك الحزن جدوى الآن، لا بد أن أجد مخرجًا»..

* * *

نظرت نحو القادمين في اتجاهها بفزع، لا تصدق ما تراه، لكنها حاولت أن تبدو متماسكة.. النعش كان ساكنًا فوق أكتافهم، يتهادى مع الإيقاع البطيء لخطواتهم نحوها.. انفعال قهار استحوذ عليها عند رؤيتهم؛ فاستسلمت مغلوبة على أمرها وأجهشت بالبكاء.. من بين دموعها الغزيرة، رأت صورته مهتزة مشوشة.. يقف بعيدًا عن الناس، ينظر نحوها في سخرية بغيضة.. أشاحت بوجهها عنه، تجاهلته تمامًا، وحاولت تجنب النظر نحو المشيعين خوفًا من الانهيار الكامل.. إلا أن كآبة مخيفة بدأت تزحف إليها، تحيط بها من كل اتجاه وتكاد تخنقها.. الهواء يقل من حولها، والمشيعون يتحركون ببطء مخيف.. فتحت فمها عن آخره، حاولت الحصول على قدر ولو ضئيل من الهواء.. عافرت للصراخ، لكن صوتها كان محبوسًا.. دوار عنيف ضرب رأسها، أخذت سرعته تتزايد بصورة غريبة.. قبل أن تتهاوي في الظلام، نجحت أخيرا في الصراخ.. صرخة واحدة مدوية..

حين أفاقت «داليا» من كابوسها المخيف كان الوقت فجرًا، لم تستطع أن توقف تلك الرجفة التي انتابتها.. كان البرد الذي تشعر به يكاد يصل إلى عظامها الرقيقة.. لم تكن هذه الكوابيس البغيضة جديدة عليها، بل كانت رفيق نومها كل ليلة منذ أن كان ما كان..

«إنه خطئي، سامحيني أرجوك».. هكذا تمتمت في أسى من بين دموعها المنهمرة..

انكمشت أسفل الغطاء، ترتجف وتجهش بالبكاء.. كانت تريد أن تختفي، أن تموت.. فالدافع الوحيد المتبقي لتمسكها بالحياة رحل، كانت كل حياتها.. وباختفائها لم يعد لديها أدنى سبب لمواصلة عبث هذه الحياة.. مسحت دموعها بأناملها الطويلة، واعتدلت فوق الفراش جالسة تحملق في الفراغ..

بعد فترة نهضت متجهة نحو نافذة غرفتها العريضة، التي تطل على نيل العجوزة.. فتحتها على مصراعيها، ووقفت مشدوهة تتأمل حركة المياه اللانهائية فوق صفحة النهر الخالد.. كانت كأنها في غيبوبة، حالة غريبة ما بين اليقظة والمنام، تحركت معها كل ذكرياتها الدفينة.. وقفت وحيدة تجتر أحزانها، تفكر في ما مضى، وكيف غيّر «معتز» مسار حياتها..

كان أبوها مرشدًا سياحيًا.. لم يكن مشهورًا أو غنيًا، ولكنه كان متفرغًا لعمله، يحقق منه دخلاً معقولاً وإن كان لا يفي بكل متطلبات الحياة الراقية التي كانت تطلبها أمها.. أول ما عرفته «داليا» عن أبيها أنه يأخذ الأمور دائمًا بجدية، ولكنه أيضا شخص صامت.. حتى علاقته بها كانت جادة، وصامتة أيضًا.. تذكرته حين كان يقوم من نومه مبكرًا، يمر عليها في فراشها، ويهمس في أذنها بتحية الصباح ثم يطبع على جبهتها قبلة أبوية حانية.. ينشغل بعدها بنفسه، ويخرج من البيت دون أن تحس به.. وحين يعود من عمله، يجلس على مائدة الطعام دون أن يتحدث.. كان دومًا شاردًا صامتًا، وأمها تتولى دفة الحديث كله، حياته في البيت كانت موزعة ما بين النوم والقراءة.. دائمًا ما كانت أمها تسعى

لإفساد هذه المتعة عليه؛ فتلحق به ليبدأ الشجار المعتاد.. صوت أمها عالٍ يحمل الاعتراض والسباب دائمًا، وطلباتها التي لا تنتهي.. ورغم صمت الأب وعزلته الاختيارية كانت «داليا» تشفق عليه من غضبة أمها.. كانت في حقيقة الأمر تحبه أكثر منها..

فأمها كانت شيئًا آخر، فنانة تشكيلية.. امرأة جميلة، يطل الذكاء من عينيها.. كأن عقلها لا يتسع لكل ذكائها؛ فينفّس عن نفسه من خلال عينيها الواسعتين.. بالغة الاهتمام بمظهرها وأنوثتها، حتى إنها عندما بلغت الأربعين كان من المستحيل على الناظر إليها أن يخمن عمرها الحقيقي.. مسيطرة سيطرة تامة على بيتها وأسرتها بمن فيها زوجها، الكلمة كلمتها والرأي رأيها..

ورثت عنها «داليا» حب الفن.. عندما كانت في الثالثة من عمرها بدأت الرسم، لكنها لم تبد موهبة حقيقية فيه، لذا فقد حولت أمها انتباهها نحو العزف على البيانو.. ألحقتها بمدرسة راهبات لتتعلم الفرنسية..

حين بدأت «داليا» تنتبه للمشاجرات، واللعنات التي تصبها أمها على أبيها، لم تستغربها في بادئ الأمر.. حسبتها أمرًا عاديًا يحدث بين أي زوجين، ولكن مع مرور الأيام وكثرة الشجار أدركت أن أمها لا تحب أباها.. وتَحول إدراكها إلى يقين حين غادرهم الأب فجأة، رحل برفقة سائحة فرنسية، ولم تره بعدها أبدًا..

بعد غياب الأب استمرت حياتها على وتيرتها المعتادة، تقضي معظم أوقات فراغها في العزف على البيانو وتعلم قراءة النوتة الموسيقية.. وبدأت تكتسب سمعة بين أقرانها في المدرسة بأنها عازفة واعدة.. وفي

أحد شهور الشتاء، كانت مدرستها تقيم حفلها السنوي المعتاد.. الذي يتجمع فيه كل طلبة المدارس الفرنسية وخريجيها.. في هذا اليوم، كان القدر قد رتب لها موعدًا.. عزفت يومها كما لم تعزف من قبل، كانت تعشق موسيقى «عمر خيرت» لذا فقد أجادت في عزف واحدة من مقطوعاته الشهيرة.. لم تسعفها ذاكرتها في استدعاء اسمها، ربما كانت العرافة والعطور الساحرة..

كان فناء المدرسة مزدحمًا بالشباب والفتيات من طلبة وخريجي المدارس الفرنسية.. وقفت «داليا» بعد أن أنهت فقرتها الموسيقية تتلقى التهاني من أصدقائها على البراعة الشديدة التي أبدتها في العزف.. بعد حين انفض جمع المهنئين وبقيت وحدها، انتبهت حين سمعت صوت يقول من خلفها:

ـ رائعة، جميلة.

التفت نحو صاحب الصوت في غضب، بعد أن ظنت عبارته واحدة من محاولات الغزل الفاشلة التي كثيرًا ما تصادفها، همت بالرد عليه بحدة، لكنه استطرد سريعًا:

ـ كل موسيقى عمر خيرت رائعة، تلك المقطوعة تحديدًا جميلة.

تمالكت نفسها في الوقت المناسب، ونظرت نحو محدثها.. لم تكن معتادة على تفحص أي شاب يحدثها، كان غرورها وأنوثتها يمنعانها من ذلك.. لكن هذا الشاب كان مختلفًا، شيء ما في نظراته جعلها تمعن التدقيق في تفاصيله.. بدا في أوائل العشرينات من عمره، عيناه بنيتان واسعتان، لهما بريق أخاذ.. متوسط الطول له جسد رياضي لافت.. شعره أسود كث، وجهه خمري حليق.. فمه ممتلئ بصورة لافتة.. كان

يرتدي بنطالاً من الجينز الأزرق، سترة من الجلد الأسود وحذاءً رياضيًا فاخرًا..

اعتراها الارتباك فتمتمت في صوت خافت:

ـ أشكرك.

ـ متى تعلمت العزف بكل هذه البراعة؟

ـ منذ سن صغيرة، لا أذكر تحديدًا ربما في الرابعة.

ارتسمت على وجهه ابتسامة ساحرة، ولم يعقب.. قالت هي بسرعة:

ـ والدتي فنانة.

رد بسخرية:

ـ وأنا والدتي ربة منزل، لكني لست كذلك.

احمرت وجنتاها خجلاً، لكنه بادرها قائلاً:

ـ أنا معتز الراوي، ثانية آداب يوناني ولاتيني.

ازداد خجلها، وقالت بصوت بدا كالهمس:

ـ وأنا داليا الكاشف، ثانوية عامة.

علا صوت المؤذن ينادي للفجر.. أغمضت «داليا» عينيها في ألم، غمغمت في ضيق:

«كم كنت حمقاء»..

* * *

(٢)

ران الصمت من حولي لفترة، ثم قطعه صوت نحيبها.. هرعت إليها؛ فوجدتها متكومة في وسط الفراش كالجنين.. ربّتُّ على رأسها بحنان، وصوت نشيجها يتصاعد.. ضممتها بقوة، وأخذت أمسد شعرها الفاحم.. شعرت بها تهدأ بين يديّ، وبدأ تنفسها ينتظم قليلاً.. استلقيت بجوارها على السرير؛ فوضعت رأسها على صدري.. أحاطت خصري بذراعها ثم نامت.. ظللت راقدًا بجوارها، مفتوح العينين أتأمل وجهها الحليبي الذي أعشق تفاصيله، فمها الوردي وأنفها الدقيق.. بعد فترة، فتحت عينيها الواسعتين، كان وجهها شديد القرب من وجهي.. افتر ثغرها عن ابتسامة مشرقة، واقتربت مني أكثر.. طبعت قبلة رقيقة على خدي؛ فابتسمت في هدوء.. ازدادت قربًا مني حتى تلاصقنا، ثم قبلتني قبلة طويلة ناعمة.. طوقت عنقي بذراعها، وأغمضت عينيها.. كنت أسمع صوت ضربات قلبي تكاد تنطق باسمها.. جذبتها فوقي بقوة، وأحكمت قبضتي حول خصرها الدقيق.. ارتعشتُ، حين شعرت

بسخونة جسمها فوق بطني.. رفرفت روحي، حين هفهف شعرها الفاحم فوق وجهي.. أصبحت شبه غائب عن الوعي، رأيتها من بين نظراتي الغائمة تمد يديها وتحرر جسدها من القميص الذي يكبله.. كالعادة بهرني بياض جلدها فمددت يدي أتحسسه بشوق ولهفة.. لم تمهلني فاستلقت فوقي، شعرت بنهديها المتمردين يستقران فوق صدري.. غبت معها وفيها عن كل ما حولي.. أخذتني كلي بعد أن صارت كلها ملكي..

«داليا، داليا»..

ـ أنت، استيقظ! هيا، كف عن هلوستك القبيحة..

فتحت عيني بصعوبة، صداع عنيف يكاد يفتك برأسي.. تلفت حولي ببطء، كان وجه الرجل الأعرج أول ما وقعت عليه عيناي.. عادلي تركيزي دفعة واحدة، فكاد قلبي يتوقف من الخوف.. تذكرت المأزق اللعين، الذي لم أتمكن من الفكاك منه بعد..

«ماذا الآن؟!».. حدثته بصوت ضعيف..

ـ الآن تأكل يا أديب.

كانت في نبرة صوته الرفيع سخرية واضحة، تجاهلتها تمامًا درءًا لشر قد لا أقدر على منعه في حالتي الراهنة.. لكن هذا التجاهل لم يمنعني من مواصلة المقاومة، لم يحل بيني وبين الاستمرار في الصمود.. هززت رأسي رافضًا الطعام، ولم أزد على ذلك حرفًا واحدًا..

ـ كما تشاء، كنت أرغب في أن تحظى بوجبة أخيرة.

قالها الأعرج ثم سكت.. اختلست النظر إليه فلم أجده، رأيت رجلين ملامحهما تنطق بالشر يسعيان نحوي.. حاولت التراجع، لكن قيودي منعتني من الحركة.. حملاني كما تُحمل الشاة قبل ذبحها، دون أدني مقاومة بعد أن فشلت محاولاتي في التملص من قبضتيهما.. رأيت من بين نظراتي المنهكة أشجارًا كثيرة متنوعة، موز ومانجو.. استنتجت أني حبيس إحدى المزارع، لكن عقلي لم يسعفني لمعرفة مكانها..

انتبهت من أفكاري حين ألقوا بجسدي فجأة على أرض رملية، ثم جذبني أحدهم من ذراعي بعنف وأجلسني عنوة على كرسي خشبي.. في وهن رفعت رأسي على رجال كثر تحلقوا من حولي، ملامح بعضهم تشي بأصولهم الأجنبية.. أعين مترصدة ترميني بنظرات عدائية، تنبئ بعاصفة من غضب لم أجد له مبررًا..

أمامي بالضبط، جلس رجل قوي البنية ملامحه تدل على عروبته.. تبدو على هيئته آيات الهيبة والإمارة، تخرج من عينيه نظرات جامدة مخيفة.. أشار برأسه في اتجاه أحد معاونيه؛ فاقترب الأخير مني بسكين ضخم وقطع القيود عن يدي وقدمي.. أخذت أحرك أطرافي محاولاً إعادة جريان الدماء فيها بعد أن كادت تتجمد في عروقي من هول الموقف.. لم يكن أمامي سوى الانتظار لمعرفة ما ستؤول إليه الأمور.. كنت أعلم أن الرجل وأتباعه لا يرون فيّ إلا شخصًا كافرًا خائنًا.. كان ذلك حقًا سيئًا للغاية، لكن الأسوأ هو نظراتهم النارية التي تحمل في طياتها استعدادًا مخيفًا لارتكاب أبشع الأفعال باسم الدين.. كثيرًا ما قرأت في تاريخ الفلسفة، والأديان المقارنة.. دومًا ما كنت أدرك بحسي الحق من الباطل، وأربأ بنفسي عن الوقوع في شراك الباطل أو

حتى مهادنته.. لكني أبدًا لم أفهم سبب تلك الحماقات التي يحشون بها أدمغة هؤلاء التعساء حقًا.. حاولت أن ألطّف الأجواء قليلاً؛ فقلت من بين ابتسامة مغتصبة:

ـ هل بدر مني ما ضايقكم؟!

رماني الرجل الأمير بنفس النظرات الجامدة، ثم قال بصوت من يلقي خطبة يحفظها مسبقًا:

ـ بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين وخاتم المرسلين.. أما بعد.. فاعلم يا عبد الله أننا لم نتخذ موقفنا هذا إلا بعد أن تأكدنا من أمرك بالرؤية والسمع..

صمت لوهلة ثم أشار لأحد أتباعه خلفه، نظرت نحوه مليًا حتى أدركت أنه الأعرج.. فتحرك من فوره مطيعًا تعليمات أميره، اختفى عن ناظري.. ساد صمت مرعب حتى عودة الأعرج، ووقف أمامي تلمع في عينيه نظرات شامتة.. أومأ الأمير برأسه فألقى الأعرج بمجموعة من الكتب والأسطوانات أسفل قدمي.. تأملتها، كانت بعضًا من مؤلفاتي المطبوعة وعدة أفلام تم اقتباسها من بعض روايات كتبتها.. رسمت على وجهي ذات الابتسامة المغتصبة وهممت بالتعليق، لكن الأمير قال بنفس الصوت الرتيب:

ـ واعلم أن ما ستسمعه الآن سيشق عليك، وأنه اختبار لصدق إيمانك.. فلا تدع الكبر والغرور يُغشيا بصيرتك، فتكن التهلكة هي نهايتك.. وتذكر قوله تعالي: «إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادًا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم

من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك خزي لهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم».. صدق الله العظيم.

شعرت بدوار فظيع يجتاحني، ورغبة جارفة في التقيؤ.. تمالكت نفسي بصعوبة ثم نظرت بطرف عيني نحو الأعرج فوجدته غارقًا في صمته.. أشحت بنظري عنه في ضيق ثم حدقت في الأمير وملامحه جامدة كالصخر، وأنا في حيرة من أمري.. حاولت أن أستوضح منه أكثر:

ـ صدقني أنا لا أفهم، أنا أبحث عن ابنتي المفقودة.

ـ أتنكر ما اقترفته يداك؟!

ـ كيف أنكر ما لا أفهمه؟! حقًا أنا لا أفهم شيئًا مما يحدث هنا.

ـ ألم تدع في كتاباتك الفاسقة إلى الفُجر والرذيلة؟

ـ أنا أكتب الأدب، وهو أمر أبعد ما يكون عما تصف، ولك في التاريخ قصص وعبر كثيرة.

تبرم الرجل وبانت على ملامحه علامات الضيق فاحتد صوته للمرة الأولى:

ـ لا يهم الآن ما تقول، ولكن لأننا لا نبغي إلا الحق فقد قرر المجلس الشرعي بالإجماع استتابتك.. فإن تبت وأنبت، رحبنا بك بين صفوفنا أخًا مجاهدًا.. وأرسلناك لأحد معسكراتنا حتى تكمل توبتك وتقوي إيمانك، وتكفّر عما اقترفته من ذنوب.. وإن أصررت على ما أنت فيه من غي فلن يكون لك عندنا إلا حد الله.

لم أجد ما أرد به عليه؛ فالتزمت الصمت التام.. واستطرد هو قائلاً:

ـ ها، ما رأيك؟

ـ ماذا تريد مني بالضبط؟ أرجوك دعني أبحث عن ابنتي.

ـ سيقوم أحد الإخوة بتصويرك الآن، في شريط متلفز سنبثه على شبكة المعلومات لجميع وكالات الأنباء، تعلن فيه توبتك وندمك عن كل كتاباتك.. وتخبر فيه الناس بضرورة العودة إلى الطريق القويم ومقاطعة المجتمع الكافر..

ـ ولكن ابنتي...

لم أتمكن من إكمال عبارتي بعد أن دوى صوت انفجار هائل، زلزل الأرض من تحت قدمي.. ساد الهرج في أنحاء المكان، دوى صوت الطلقات النارية كأنه عاصفة رعدية عاتية.. علا الغبار من حولي في كل مكان، وأصبحت الرؤية باهتة.. تسمرت في مكاني من المفاجأة والخوف.. من بين ذرات الرمال المتطايرة، لمحت عيناي قوات الأمن تقتحم المكان.. ورأيت الأعرج وأتباع الأمير يتراجعون أمام تقدم قوات الأمن، وهم يتبادلون معهم إطلاق النيران.. كدت أطلق العنان لقدمي، لكن انفجارا قويًا وقع بالقرب مني أسقطني على وجهي بعنف..

كان آخر ما رأيته قبل أن يبتلعني الظلام..

فوضى عارمة في كل مكان، أقدامًا كثيرة تجري من حولي في كل اتجاه..

* * *

أنهت «داليا» محاضرتها للطلبة في هذا اليوم بسرعة، وعلى غير عادتها غادرت مبنى الكلية مبكرة.. كان صباحها سيئًا ومزاجها متعكرًا فقررت

إنهاء المحاضرات على عجل، والتوجه لمستشفى سرطان الأطفال.. فمنذ طلاقها القريب، وعودتها للعمل كأستاذة مساعدة بكلية التربية الموسيقية، أصبحت «داليا» تخصص وقتًا ثابتًا تقضيه بالمستشفى.. تلاعب الأطفال وتواسيهم، تشتري لهم الألعاب والحلوى..

ولأن الأحداث السيئة لا تأتي أبدًا فرادى فقد اصطدم ميكروباص طائش بمؤخرة سيارتها الصغيرة، لم يصب الميكروباص أي ضرر بالطبع، لكن تلفيات جسيمة لحقت بالسيارة.. أخذت «داليا» تسب وتلعن ذلك النحس الذي لا يكف عن ملاحقتها، والسائق ينظر نحوها في لامبالاة من بين جفنيه المنتفخين وعينيه الحمراوين.. بين حين وآخر يَصدر عن شفتيه المتشققتين صوت أجش، تحمل نبراته عبارات السباب والغضب.. بعد فترة تدخل بعض المارة، نصحوها بتحرير محضر بالحادثة حتى يتكفل التأمين بتكلفة الإصلاح على أقل تقدير.. أذعنت لنصيحتهم على مضض، ثم بقيت تنتظر وصول مندوبي التوكيل لمعاينة التلفيات وحمل السيارة إلى ورشتهم..

طوال الفترة التي مكثتها في انتظار سيارة التوكيل، التي ستقوم برفع حطام عربتها وتوصيلها للورشة، شعرت «داليا» بأن القاهرة ازدادت كآبة وامتلأ هواؤها غبارًا.. فار دمها وارتفع ضغطه، فحبست أنفاسها وكظمت غيظها حتى عادت لبيتها..

يقولون إنه حين يفترض المرء أن الأمور يستحيل أن تزداد سوءًا، فإن الحياة تثبت على الدوام خطأ هذا الافتراض..

وهذا ما حدث بالضبط مع «داليا»، فحين دخلت إلى شقتها سارعت

بخلع ملابسها وألقت بها على الأرضية الخشبية للصالة، أبقت فقط على حمالة صدرها وسراويلها الداخلي.. توجهت من فورها نحو المطبخ، تطمح في فنجان من القهوة يعيد لها اتزانها المفقود منذ بدء هذا اليوم المشؤوم.. إلا أنه واستكمالاً لمسلسل النحس، فارت القهوة وأحدثت فوضى عارمة على سطح الموقد.. وحين حاولت الإمساك بالكنكة الساخنة لسعت يدها؛ فأفلتتها على الأرض ملطخة السيراميك الأبيض بسواد القهوة.. أخذت «داليا» تسب وتلعن هذا النحس الذي يأبي مغادرة يومها، وتركت المطبخ دون أن تنظف شيئًا..

كانت تشعر بلسعة الحرق الخفيف في يدها، لكن ألمًا آخر أشد وطأة كان يعتصر قلبها.. ألمًا حسبته ولّى وذهب منذ زمن بعيد.. ارتجف جسدها لإدراك وجوده بعد كل هذه السنوات، وبعد كل ما بذلته من جهد لكي تنسى.. أصبح من الواضح لها أن الوقت قد نجح في مداراة الأسى، لكنه فشل في مداواته.. إحساس غاشم بقلة الحيلة تمكن منها، أيقنت أنها لم تتمكن من التغلب على ما مرت به..

توجهت نحو الصالة ثم ألقت بجسدها فوق أحد مقاعد الأنتريه الوثيرة، وضعت قدميها الصغيرتين على المنضدة المقابلة.. انتبهت على صوت رنين هاتفها المحمول، أجفلتها المفاجأة حين ومضت الشاشة باسم المتصل، كان «معتز».. تسمرت في مكانها لوهلة، ثم ما لبثت أن طوحت بالمحمول بعيدًا؛ فسقط فوق الأريكة المجاورة..

نزفت جراح قلبها القديمة كلها بغتة، شعرت كأن الدماء تسيل من جسدها فعليًا، أغمضت عينيها في أسى.. كانت تعتقد أنها، حتى ولو بعد مئة سنة، لن تقدر على الحديث مع «معتز» مرة أخرى..

هزت رأسها بعنف طاردة عنها تلك الذكرى التي لا تسبب لها إلا الألم.. أخذت تتأمل ساقيها الملفوفتين، المفرودتين أمامها.. سيطر عليها شعور بالرضا، وأيضا إحساس بعدم الاكتراث.. كانت تعلم أنها جميلة، وأن الكثير من النساء على أتم الاستعداد للتضحية بكل شيء في سبيل الحصول على جسد كجسدها.. لاحت منها نظرة عابرة نحو ذلك الإطار الذهبي الأنيق، الذي يتوسط الحائط المقابل لجلستها.. كان يحوي صورة لأمها في أوج جمالها، فابتسمت وتمتمت:

«يبدو أني أسير على نفس دربك»..

أنهكتها الذكريات، وتداعت في رأسها الصور والأحداث.. تذكرت حالها وأمها بعد أن تخلى عنهما الرجل، تركهما وحيدتين تواجهان مصاعب الحياة.. كانت أمها امرأة ذات شخصية قوية كما عهدتها، لم تتأثر بما حدث.. بل على العكس انهمكت في حياة اجتماعية حافلة وتكوين صداقات جديدة.. ساعدها في ذلك موهبتها كفنانة تشكيلية، وسرعان ما لمع نجمها وزادت معارضها الفنية..

انغلقت «داليا» على نفسها أكثر، وتوحدت مع عزفها على البيانو.. ثم بدأت تكتشف أن لأمها حياة ثانية سرية غير تلك التي تعرفها.. رأتها كثيرًا ما تحمل هاتف المنزل وتدخل به لغرفتها، تغلق الباب من خلفها.. تقضي وقتًا طويلاً في حديث هامس، لا تتمكن «داليا» من سماع تفاصيله.. شاهدتها تقضي أوقاتًا طويلة أمام المرآة، تتزين بعد أن تكون قد انتهت من حمام ساخن.. تغادر بعدها المنزل، وحين تعود تكون علامات السعادة تكاد تقفز من عينيها.. أصابتها الحيرة في بادئ الأمر، ولكن فطرتها كابنة قادتها إلى الاقتناع بأن في حياة أمها رجلاً جديدًا..

فكما أن الابنة لا تستطيع أن تخفي أسرارها عن أمها، فكذلك الأم.. فكلتاهما لديها القدرة بطبيعتها الأنثوية على اكتشاف أسرار الأخرى..

ومرت الأيام، والحال كما هي لا تتغير.. فقط مساحة من الحرية وافقت أمها على منحها لها، فسرتها «داليا» بأنها نوع من تأنيب الضمير.. حتى جاء اليوم الذي قالت فيه أمها بأنها لم تعد تطيق الحياة بمفردها، أخبرتها أنها ستتزوج مرة أخرى.. قالت لها كلامًا كثيرًا لم تعد تذكر معظمه، كلامًا مكررًا باهتا.. فقط بعض العبارات التي تتكرر في الأفلام.. «أنت أهم ما في حياتي».. «لقد تحملت الكثير من أجلك».. «في النهاية أنا امرأة، لي متطلبات».. «لا تخافي، لن يتغير شيء في حياتنا أبدًا»..«ربما ستتفهمين موقفي عندما تكبرين»..

أفاقتها تلك العبارات السخيفة من ذكرياتها، ابتسمت في سخرية مريرة ثم تمتمت في حنق:

«لقد كبرت الآن يا ماما، ومع ذلك لم أفهمك أبدًا..»

* * *

(٣)

ليلة جديدة تطفح بالعذاب والمرار، لم أعد أستطيع التحمل أكثر من ذلك، لا بد أن أجد «حياة».. فمنذ أن نجحت قوات الأمن في تحريري من قبضة هؤلاء المتشددين وأنا لم أذق للراحة طعمًا.. كنت أحسب أنهم سيعيدونني لبيتي، لكن أحدهم أخبرني ـ بعد الكثير من عبارات الترحاب والتهنئة ـ أنهم يحتاجون مني الإدلاء ببعض المعلومات.. أخبرته أني في عجلة من أمري، وأن ابنتي مفقودة..

«لا تقلق، لن يستغرق الأمر طويلاً..».. هكذا أخبرني أحد الضباط منذ أكثر من خمسة أيام..

بات اليأس رفيقًا لروحي في هذه الحجرة المقبضة، الساكنة سكون الموت.. حجرة مصمتة، تمنع عن أذني كل الأصوات خارجها.. جدرانها ملونة بطلاء رمادي باهت، سقفها أيضا كذلك تتدلى في منتصفه لمبة وحيدة شاحبة.. الحجرة تكاد تكون خالية من أي شيء، عدا سرير معدني.. ترقد فوقه مرتبة صغيرة، سببت لي آلامًا في أثناء محاولاتي الفاشلة

للنوم.. مكتب معدني صغير، أمامه كرسي مصنوع من الخشب.. في الصباح يأتونني بطعام الإفطار، وقرب العصر أتناول الغداء، وأخيرا أعلم أن الليل قد حل عندما يمنحونني وجبة العشاء..

أول يوم زارني شخص متجهم الملامح، حاول دون فائدة أن يتصنع الود برسم ابتسامة جامدة على وجهه.. أخبرني من بين شفتيه المختبئتين أسفل شارب ضخم، أن أكتب تقريرًا أسرد فيه كل ما حدث معي.. وافقته على الفور، وانتظرت أن يتسلمه مني أي فرد منهم.. لكن لم يحدث..

في الصباح التالي، ومع وجبة الإفطار، استلم مني أحدهم ما كتبت وأعطاني أوراقا أخرى.. طلب مني إعادة كتابة ما حدث مرة أخرى، حاولت الاستفهام منه عن جدوى ذلك، لكن بلا مجيب.. تغاضيت عن غرابة هذا التصرف، وكتبت ما حدث من جديد..

لكن تكرر ما حدث في اليوم التالي أيضًا.. أوراق بيضاء جديدة ونفس الطلب المغلف بتلك الابتسامة السمجة بإعادة كتابة ما حدث معي.. لم أتمالك نفسي هذه المرة فصحت في وجه هذا الطالب متصنع الود، رفضت تنفيذ طلبه وأنا أطالب بلقاء المسؤول عن هذا المكان.. أخبرته بحدة أني شخصية عامة، ولا بد أن أخرج فورًا.. لم يبد على وجهه أي أثر لصياحي، فقط اتسعت ابتسامته حتى كادت تبلغ أذنيه ثم انصرف..

ظللت بعدها فترة أحاول استعادة هدوئي حتى فُتح باب الحجرة، دخل رجلان اقتاداني بكل هدوء لحجرة أخرى.. أصغر في الحجم قليلاً،

لكنها تقريبًا كانت كالحجرة الأولى.. سرير معدني ومرتبة مؤلمة، مكتب معدني صغير وكرسي من الخشب.. وتلك اللمبة الباهتة المتدلية من السقف.. فقط يكمن الاختلاف في أنها كانت تسمح لأذني بالتقاط الأصوات خارجها.. ويا ليتها لم تكن كذلك.. صراخ وعويل، صيحات استغاثة وتوسلات مرعبة تستجدي الرحمة وتسأل التوقف عن استكمال ما يحدث.. لم أكن أملك سوى السمع، ويقوم عقلي بالباقي.. يرسم صورة متخيلة لما يمكن أن يكون يحدث خارج الحجرة، وبسببه تصدر تلك الصرخات..

وجدتني أبتعد عن الباب، لا شعوريًا، حتى وصلت إلى السرير.. انكمشت فوقه بعدما قهرني الخوف من ذلك العذاب الغامض، الذي مثلته هذه الأصوات في أبشع صورة.. جلست لفترة صامتًا دون أدنى حركة، أحاول أن أبعد تفكيري عن تلك الأصوات المعذبة.. وضعت أصبعي في فتحتي أذنيّ محاولاً منع الأصوات من الوصول لعقلي، لكن هيهات.. حاولت أن أهرب للنوم، لكني فشلت.. فجأة اخترقت صرخة عالية فضاء المكان، تردد صداها بقوة.. ثم ساد بعدها السكون..

شعرت بقشعريرة مخيفة تسري في جسدي، اعتراني الاضطراب؛ فوقفت سريعًا محاولاً تمالك نفسي.. أخذت أجوب الحجرة الضيقة جيئة وذهابًا.. بدأت الأفكار السوداء تعترك داخلي، ومعها بدأ فيض من الذكريات ينساب رغمًا عني..

لا أعلم لماذا جاء أبي في هذا الوقت تحديدًا.. كان دائمًا ما تطول غيبته عن المنزل، بعذر أو من دون عذر.. كان الوقت متأخرًا، وأبي مرتديًا كامل ملابسه، متأنقًا كعادته.. يجوب غرفة نوم أمي طولاً وعرضًا في

خطوات عصبية، عرفتها من قوة دقات حذائه على الأرضية الخشبية للغرفة.. يفرك قبضتيه كأنه يبحث عن شيء أو يفكر في أمر ما.. ملامحه غاضبة، صوته حاد، لم أسمع منه تلك الليلة إلا السباب واللعن.. أمي تضمني إلى صدرها، لتمنعني من رؤية أبي على هذه الصورة المرعبة.. تمسح بيدها على شعري، تتمتم بكلمات مرتعشة محاولة طمأنتي.. لكني رأيت كل شيء، ولأني رأيت فقد ازددت التصاقًا بها..

انتفض أبي صارخًا، وأخذ يضرب قبضته بعنف في الحائط.. كان يضرب الحائط كأنه يضرب ألد أعدائه، ويسب أمي بأقذع الألفاظ.. اختلست النظر من بين حضنها، شعرت بجسدها الضئيل يرتجف من الخوف، ورأيت ظل جسد أبي يتجسد على الحائط أمامي عملاقًا مرعبًا..

لبث هذا المشهد تحت أنظاري لحظة واحدة، حتى اقترب أبي منا فجأة.. جذبني عنوة من بين ذراعي أمي ثم علقني من عنقي بقسوة، كأنه يمسك بقط صغير.. ألقاني خارج الغرفة بعنف، ولم يكبد نفسه عناء إغلاق بابها حتى لا أرى ما سيحدث..

حين استعدت أنفاسي، وتمالكت نفسي قليلاً نظرت في لهفة تجاه أمي.. كان جسد أبي الضخم يحجبها عن أنظاري.. لكني كنت أسمع صراخها، صرخات حادة مزقت قلبي وفطرته، تغلغلت في مسامي وقطعتها.. تراجعت مبتعدًا، واختبأت خلف الحائط حين التفت أبي فجأة نحو الباب.. لم يرني أو لعله لم يكترث لرؤيتي، فقط تحرك نحو زر الإضاءة مطفئًا النور.. وصراخ أمي لا يزال يشق سمعي، ويدمي روحي..

زحفت على بطني بحذر شديد نحو الغرفة حتى انزلقت أسفل الفراش.. وصرخات أمي مستمرة، تشق سكون الظلام وتمزقه، صرخات وتوسلات تزداد ألمًا ويأسًا وهلعًا.. لم تلبث أن خبت ببطء، فلم تمض برهة حتى تحولت إلى ما يشبه الحشرجة المكتومة.. كانت المسكينة قد تهاوت على الأرض، مستسلمة تمامًا.. وأبي يسحقها بركلات من قدميه في الغرفة المظلمة.. وبقيت أنا في مكاني أسفل الفراش، مختبئًا مرتعدًا في صمت..

أفقت من نوبة ذكرياتي على بكائي وقد علا صوته.. كنت متكومًا على أرضية الحجرة الباردة، مستندًا بظهري إلى حائطها المصمت.. دافنًا رأسي بين ركبتي، أبكي بحرقة تمامًا كما فعلت بعد أن رحل أبي.. كان أكثر ما يؤلمني هو ضعفي وصغر سني، إحساسي بالعجز عن الدفاع عنها.. بخاصة أنه لم يكن لاعتدائه عليها أي مبرر.. كان أبي يعاقبها لسماحها لأهلها بزيارة المنزل رغم منعه لهم.. من يومها وأنا أكره الألم، أمقت كل ما يمكن أن يتسبب في حدوثه.. لا أحتمل رؤية شخص يهمني أمره يتألم..

مسحت دموعي المنهمرة وأنا أتعجب من كل هذا التكبر والتجبر المتجسدين في شخصية أبي، اللذين لم أجد لهما سبب.. فأبي لم يكن غنيًا أو سليل واحدة من تلك الأسر العريقة، التي تتباهي بحسبها ونسبها، بل كان شخصًا عاديًا.. تزوج أمي في سن مبكرة، زواج تقليدي لا حب فيه.. أخبرتني أمي أنه كان يرفض الإنجاب لأن طموحه كبير، يرى أن الأبناء عائق في سبيل تحقيق حلمه.. كان يحلم بالعمل في السينما، والنجاح في هذا المجال أمر ليس باليسير.. حتى تعرف على واحدة

من الممثلات التي كاد نجمها يأفل، أقنعها بفحولته أن يخرج لها فيلمًا يعيدها إلى عالم الشهرة والأضواء..

ومنذ ذلك الحين، تحولت حياته تمامًا.. أصبح المنتجون يتهافتون على التعاقد معه، النجوم يتسابقون للحصول على موافقته لإخراج أفلامهم الجديدة.. كان مجرد وضع اسمه على أفيش الفيلم كفيلاً بتحقيق قدر كبير من النجاح.. تحولت شخصيته مع نجاحاته الكبيرة إلى شخصية أخرى، متكبرة متجبرة ومتسلطة.. لا يرى إلا نفسه، يرفض أي رأي مخالف لرأيه.. أصبح يرى أمي وصمة في سجل نجاحه، كان يرغب في التخلص منها بأي شكل.. لكن عائقًا واحدًا حال بينه وبين ذلك..

كان هذا العائق هو أنا..

ابنه الوحيد..

* * *

كان الليل قد حلّ، يوم آخر يمضي من أيام الخريف السيئة التي تجعلك تكره القاهرة المصابة بكل أشكال التلوث.. المكتظة بالسيارات والبشر، الغارقة في الوحل والتعاسة.. المرور كان بطيئًا جدًا في مثل هذا التوقيت بمنطقة العجوزة، كورنيش النيل يكاد يكون مشلولاً تمامًا..

زادت تلك الحركة الكسيحة لطوابير السيارات في الشارع من شعور «داليا» بالسأم؛ فأغلقت نافذة الصالة في ضجر.. كانت منذ أن عاودتها ذكرى أمها تحس نفسها متأرجحة بين الشعور بأنها ما زالت فتاة، شابة في العشرين من عمرها.. عقلها يخبرها بذلك، بينما جسدها يقول بأن عمرها تقريبًا ضعف ذلك.. انتابها شعور بغيض بأن حياتها ذهبت هباءً..

«ما أسرع العمر! تمضي رحلته سريعًا.. كم تمنيت لو تريث قليلاً»..

هكذا حدثت نفسها بينما كانت تتوجه نحو البيانو لتفريغ هذه الطاقة السلبية في العزف، لكنها توقفت لوهلة أمام المرآة الأنيقة التي تزين الحائط الأوسط للصالون.. استوقفتها صورتها التي انعكست على السطح الأملس للمرآة..

انتبهت لشحوب لونها الواضح، ذلك السواد الشديد أسفل عينيها.. فجأة صعدت إلى حلقها حموضة لاذعة، نبض قلبها نبضات سريعة متلاحقة.. ارتعشت ساقاها بشدة، أصبحتا لا تكادان تقويان على حمل جسدها الرشيق.. اشتعل في صدرها ألم مريع، شعرت برغبة شديدة في التقيؤ..

هرولت مسرعة نحو الحمام، تقاوم ذلك الانفجار الذي يوشك أن يخرج من فمها.. توجهت بكل كيانها إلى المرحاض الأبيض، انحنت بجزعها نحوه ثم أمسكت بكفيها حافته في قوة وهي تقاوم تلك التقلصات، والآلام التي استعرت في معدتها.. سرعان ما أفرغت جوفها في ألم، كانت مجرد عصارة بلا لون.. ولكن لها رائحة قوية نفاذة..

تجاهلت «داليا» إحساسها الشديد بالقرف والهزال، واتكأت على ركبتيها واقفة في وهن.. كان الإعياء باديًا عليها، والعرق يغمر كل جسدها ويطبع بقعًا من البلل على ملابسها.. تقلصت أمعاؤها من جديد، ومعها انتشر ألم فظيع في عضلاتها ومفاصلها.. فتحت صنبور الحوض وأخذت ترش الماء البارد على وجهها، ولكنه لم يكن كافيًا لانتشالها من كل هذا الإعياء والهزال..

أدارت الصنبور الساخن لحوض الاستحمام؛ فانساب الماء بقوة فيه.. انتشر البخار سريعًا، ومعه امتلأ الحوض بالماء.. نزعت ملابسها المبتلة أمام المرآة الكبيرة التي تتوسط الحائط الأيمن للحمام، وألقت بها على الأرضية بلا اكتراث.. لم تتأمل نفسها في المرآة كما اعتادت أن تفعل، ودخلت بجسدها المرهق وسط الماء الدافئ.. رفعت حرارته من سرعة دورتها الدموية، وأيقظت مسام جلدها.. استرخت عضلاتها، وخفت آلام مفاصلها.. تنفست بعمق، سرى في جسدها خدر أراحها قليلاً، أحست بالماء يدغدغ خلاياها بلطف ولين.. استسلمت تمامًا لذلك الإحساس، ثم حبست أنفاسها وغطست برأسها أسفل الماء..

كان الإنهاك الذي وصلت له وذلك الخدر الذي سرى في جسدها، قد جعلاها في حالة متأرجحة بين النعاس والاسترخاء.. أفكار متعارضة عبرت ذهنها، صراع عنيف بين الماضي والحاضر..

«لقد تزوجت يا داليا».. هكذا قالت لها أمها..

هكذا بكل بساطة، دون أدنى محاولة لتخفيف وقع الأمر على نفسيتها، أخبرتها أمها بزواجها.. لم تنغلق «داليا» على نفسها طويلاً، وسرعان ما حاولت استكشاف هذا الرجل الجديد الذي كانت أمها تدعوه زوجها.. لم يكن كأبيها على الإطلاق، حقًا كانت تبدو عليه علامات الاحترام والوقار.. وكذلك الثراء.. إلا أنه كان عجوزًا، أكبر بكثير من أبيها.. عرفت أيضا من أمها أنه متزوج، ولا يزال محتفظًا بزوجته الأولى، بل إنه كان يعتبرها زوجته الفعلية.. يصحبها معه في جميع المناسبات، أما أمها فكان يكتفي بزيارتها مرتين أو ثلاث مرات أسبوعيًا.. يتناول

الغداء ثم يصطحبها لغرفة النوم، يستريحان قليلاً ثم يغادرهما قبل السابعة بقليل..

لم تهتم «داليا» لمعرفة سبب مغادرته، خمنت أنه ربما يذهب لعمله أو حتى يعود لزوجته الأولى.. لكن ما أصابها بالدهشة أنه لم يبِتْ مع أمها ولو حتى لليلة واحدة.. لم تدم دهشتها طويلاً، وسرعان ما فاض ثراء الزوج على منزلهم بأكلمه.. تم تغيير أثاث البيت كله، الحوائط تم طلاؤها وفقًا لأحدث التصميمات والصيحات، وأصبح كل شيء في البيت جديدًا.. اشترى الزوج سيارة فاخرة، وجعل ملكيتها باسم أمها.. لكن «داليا» كانت هي المستفيد الأول من هذه السيارة؛ فتعلمت القيادة في سن مبكرة.. أصبحت ترغم السائق الخاص الذي عينه زوج أمها على الجلوس إلى جوارها في حين تمارس هي متعتها في القيادة..

بدأت تشعر بجمالها أكثر منذ ذلك الحين.. كل الشباب يلاحقونها، وهي تتباهى بهذه الملاحقة، ولكن لا تتجاوب معها.. بقيت كما هي تفضل العزلة ولا تحب الكلام كثيرًا، لا تذكر أن أحدهم أثار انتباهها قبل «معتز».. ربما واحد فقط، استطاع أن يرضي عينيها، تمكن من تحريك شفتيها ببضع كلمات قليلة.. ولا شيء أكثر من ذلك..

اتسعت الآفاق رحبة أمام حياتهما، وارتقت بهما إلى مستويات لم تحلما بها من قبل.. ربما كان هذا هو هدف أمها من مثل هذه الزيجة، لا يهم، المهم أنهما كانتا سعيدتين أو تظاهرتا بالسعادة..

مع مرور الأيام، بدأت «داليا» تحس بضيق أمها من وجودها في أثناء زيارات الزوج.. بدأت تفهم سبب محاولات أمها المستميتة لجعلها

تترك المنزل قبل الوقت الذي يأتي فيه زوجها، أحست أن أمها ترى فيها عائقًا يقف في طريق طموحها الذي لا نهاية له.. لم تعترض على رغبات أمها، بل على العكس رأت في ذلك فرصة للحصول على المزيد من الحرية.. والمزيد من الرفاهية..

لكن الأيام لم تكن تخبئ لها المزيد من السعادة المصطنعة كما كانت تظن.. فبعد بضع سنين مات الزوج العجوز، وعادت حياتها مع أمها لسيرتها الأولى.. فقط عدة ألوف من الجنيهات ورثتها الأم، أودعتها في أحد البنوك، من عائدها كانت تنفق على متطلبات المنزل..

رجعت «داليا» لطبيعتها الصامتة، وعزلتها الاختيارية مع البيانو.. وعادت أمها أيضا كما كانت، لم تتغير ولا انتابها أي إحساس جديد.. فبعد أن مات زوجها، ولم تكن قد مضت على وفاته عدة أشهر، عادت لممارسة كل عاداتها القديمة.. تحمل التليفون إلى داخل غرفتها، وتنفرد به ساعات طوال.. وتدخل الحمام وتعود لتقف أمام المرآة طويلاً، تخرج و«داليا» متأكدة أنها ستذهب للقاء رجل.. لكن الأمر لم يقف عند هذا الحد، بل حدث ما هو أكثر من هذا..

بدأ الرجال يزورون أمها في البيت، مرة بحجة تناول العشاء، ومرة أخرى بحجة الزيارة للاطمئنان على أحوالها وأحوال ابنتها.. كانت الأم في بادئ الأمر تمارس نزواتها على استحياء، دون علم «داليا».. فكانت لا تحضر رجالها للمنزل إلا في الأوقات التي تكون «داليا» فيها متغيبة في المدرسة أو عند واحدة من صديقاتها أو في النادي.. لكن مع مرور الأيام وكثرة زوارها، بدأت الأم لا تهتم لمشاعر ابنتها، كانت تختلي

بزائرها في غرفة النوم.. وحين يغادر، تخبرها دون أن تنظر مباشرة في عينيها أنها تزوجته عرفيًا.. ويستمر هذا الزائر في الحضور لبيتهم فترة، قد تطول أو تقصر، لكنه في نهاية الأمر يتوقف عن التردد على البيته.. تخبرها أمها حينها أنها قد انفصلت عنه لسوء خلقه أو لطمعه فيها، و«داليا» تسمع ولا تعقب..

بلغت «داليا» التاسعة عشر من عمرها، وأصبحت تفهم هذه الأمور جيدًا.. ومع كل فترة تبدأ فيها زيارات جديدة لزائر جديد تزداد عزلتها، ويحترق قلبها في صمت.. تطرق برأسها نحو الأرض كلما غادرت المنزل هربًا من أعين الناس؛ فأمها أصبحت مفضوحة.. باتت سيرتها على ألسنة كل سكان المنطقة.. في هذه اللحظة أدركت «داليا» حجم المأساة التي تعيشها، وفي هذه الفترة تحديدًا التقت «معتز»..

وحين أحست بعينيه تنظران لأعماق روحها في أول لقاء، شعرت كأنها تعرفه منذ الأزل.. لم تفهم أبدًا كيف أن ارتباطا قويًا مثل هذا جمع بينهما بمثل هذه السرعة..

أفاقت من دوامات ذكرياتها المؤلمة؛ فشهقت بقوة وهي تردد بصوت خافت:

«يا رب، لا تكتب عليّ ما كتبته على ماما..»

* * *

(٤)

لم يعد النوم كافيًا لمحو ما أشعر به، لم يعد قادرًا على إنهاء معاناتي.. فحتى في غفوتي تطاردني الكوابيس، والهواجس السوداء.. في هذه الليلة حلمت أني أحمل «حياة» بين ذراعي، أركض بها وسط حقول مظلمة.. كانت الصغيرة ترتعد، يتخبط رأسها على صدري.. لكني ضممتها بعنف، ورحت أبتعد بها بخطى حثيثة مخترقًا الظلمة.. رمقتني أعين كثيرة متطفلة، دون أن تقدم أدنى مساعدة.. تجاهلت نظراتهم سريعًا بعد أن سيطر عليّ إحساس مخيف بأن عملاقًا مرعبًا يفتش عن «حياة»، يرغب في الفتك بها، فأردت أن أخفيها.. لا يهم المكان، المهم أن أبتعد بها عن هذا العملاق.. كنت أجري غير عابئ بالآلام التي استعرت في كل جسدي، أسمع دبيب خطواته الضخمة ترج الأرض من تحتي.. مضيت أخترق الحقول، تعثرت مرات ومرات.. شعرت بالتعب يتسلل إلى ذراعي وقدمي، كأني أركض منذ زمن بعيد جدًا.. سرعان ما أصابني الإنهاك، صارت يداي خاملتين وخطواتي ثقيلة..

سال العرق على جبيني، واخترق عينيّ فغشاهما.. توقفت وسط الظلام أهث، فلم يعد لدي من الجهد ما يقويني.. مددت «حياة» على الأرض الرطبة، ثم جُلت ببصري باحثًا عن مكان أخفيها فيه..

من بعيد لاحت لي بقعة من النور، ضوؤها بدا لافتًا وسط كل هذا الظلام، خمنت أن فيها نجاتها.. استطعت أن أحدد من مكاني عدد الخطوات الكافية التي تفصلني عن ذلك النور.. شحذت عزمي وتغلبت على ذلك الألم الذي يكاد يمزقني، كأنه مسامير انغرزت في كل خلاياي.. حملتها من جديد، وعدوت بها حتى أوصلتها للنور.. هناك، وضعتها برفق، طبعت قبلة حانية على جبهتها.. وضعت يديها الصغيرتين فوق صدرها، ومسدت خصلة نافرة من شعرها.. وهي صامتة تمامًا، لا تتحرك.. فقط اكتفت بنظرة، وابتسامة باهتة..

انتبهت على صرخة تردد صداها في المكان، التفت على أثرها نحو مصدرها.. ركضت في اتجاهها على الفور حين تبينت أنها «داليا»، لكني تسمرت في مكاني بعدما رأيت العملاق يفترسها وينهشها.. وعادت «حياة» تسيطر على عقلي، اعتراني الخوف مجددًا على مصيرها.. حاولت الاقتراب منها، لكني فشلت، كأن حاجزًا خفيًا يفصل بيني وبينها.. أخذت أطرق بيدي عليه في عنف، لكن دون جدوى.. فجأة انتصبت «حياة» واقفة في هدوء، تحركت مبتعدة عني في اتجاه النور.. كان آخر ما رأيته منها هو ابتسامتها المشرقة حين لوحت لي بيدها مودعة.. قبل أن تختفي وسط النور..

ازداد تعكر مزاجي واضطرابي من تذكري لحلمي البائس.. كنت جالسًا وحدي أتجرع مرارة انتظار مقابلة الضابط، المكلف بإجراء التحقيق

معي كما علمت.. أحضروني لمكتبه منذ أكثر من ثلاث ساعات تقريبًا، ولم أقابله بعد.. كانت غرفة المكتب عادية، لا تبدو عليها علامات الفخامة، تخلو من أي شيء يدل على ذوق صاحبها.. مجرد غرفة من غرف المؤسسات الحكومية، فقط كان التكييف فيها باردًا للغاية.. تأففت في ضيق؛ فأنا أمقت فترات الانتظار، كم هي مؤلمة بحق.. بل هي أشد إيلامًا للنفس من الموت ذاته، فحينها تقتلك الدقائق ببطء شديد.. وقتها تتوه روحك بين الحقيقة والسراب، ترتسم أمامك ملايين الاستفهامات دون أدنى إجابة.. كل هذا وأنت ثابت في مكانك رغمًا عنك.. محاصر بين كلمتين، مذنب وبريء.. تحاول التشبث بأمل ولو بسيط، تبحث عن دافع ولو ضئيل يبقيك على قيد الحياة.. لكنك في النهاية لا تجد أمامك سوى الانتظار.. تتبخر أحلامك، وتختفي الكلمات من عقلك..

ـ حمدًا لله على سلامتك أستاذ معتز.

رفعت رأسي نحو صاحب العبارة في هدوء بعد أن خمنت شخصيته من نبرته الواثقة.. كان رجلاً في أوائل العقد الخامس من عمره، طويل القامة، قوي البنيان، له وجه ضخم خالٍ من أي تعبير وفك عريض، حاجباه كثيفان مقترنان أعلى أنفه الأفطس.. عيناه واسعتان غائرتان، جبهته عريضة بارزة بصورة ملحوظة.. مصفَّف الشعر بعناية، له شاربٌ كث تكاد شفته العليا تختفي خلفه.. يرتدي قميصًا أبيض وبنطلونًا داكنًا.. تأمَّلتُ مظهره غير المريح، ولم أردَّ عليه بعد أن شعرت بانقباضٍ في صدري تجاهه، فاقترب مِن مجلسي مادًا كفه الضخمة للمصافحة..

صافحته بفتور ولم أنطق بكلمة واحدة؛ فأردف هو بنبرة هادئة:

ـ عقيد أسامة الجيار.

قالها ثم تحرك للجلوس خلف مكتبه.. أسند ظهره على مقعد جلدي ضخم، أشعل سيجارة نفث دخانها مستمتعًا في هدوء ثم رماني بنظرة ماكرة حين قال:

ـ ها، تفضل احكِ.

تعجبت من هذه البداية للحديث، لكني قلت:

ـ عن أي شيء أحكي؟! لقد كتبت كل ما أعرفه.

ارتسمت على وجهه ابتسامة مخيفة حين سألني بنبرة باردة:

ـ متى انضممت للإخوان؟

امتقع وجهي وهربت الدماء من عروقي، كنت أعرف أن ذلك الأسلوب لن يؤدي في نهاية الأمر إلا لأحد أمرين.. السجن المؤبد أو أن أعمل مرشدًا له.. أخرجتني ضحكته السمجة من دوامة الأفكار السوداء قبل أن تحكم حلقاتها حولي.. نظرت نحوه متعجبًا؛ فقال ساخرًا:

ـ إخوان إيه يا رجل! أنت نسيت أننا أنقذناك من الجماعات المتطرفة.

تنهدت بعد أن اطمأن قلبي لدعابته السمجة وقلت:

ـ الحمد لله أنك أنت لم تنس.

ـ لماذا انضممت لجماعة ٦ أبريل؟

«يبدو أنه عازم على عدم خروجي سليمًا من هذا المكان».. هكذا حدثت نفسي سرًا دون أن أجيب على سؤاله، واستطرد هو بنبرة لاحت فيها السخرية:

ـ طيب، الظاهر أنك من الفوضويين.

لم أكن أعلم أن للأناركية كيانًا منظم في مصر، لكني تماسكت وتجاهلت الرد على أسئلته العجيبة.. تفرس العقيد «أسامة» في وجهي مليًا ثم قال بنبرة جادة:

ـ يبدو أنك لست في مزاج جيد اليوم.

ـ وكيف يكون مزاجي جيدًا هنا.

ـ هل أساء إليك أحد؟

ـ الحقيقة مجرد وجودي هنا إساءة.

ـ ممم، أنت طبعًا عارف الظروف التي يمر بها البلد.

ـ وأكيد سيادتك عارف طبعًا أن ابنتي مفقودة، وكل دقيقة تمر ستكون فارقة في البحث عنها.

رمقني العقيد «أسامة» بنظرة ميتة، واستطرد كأني لم أقل شيئًا:

ـ وعارف أننا نحتاج دعم كل المواطنين المخلصين.

تمالكت أعصابي وكظمت غيظي ثم قلت بنبرة حاولت أن تكون هادئة:

ـ أكيد.

ـ عظيم جدًا.

ـ ما العظيم في الأمر؟!

ـ نحتاج تعاونك معنا في الفترة المقبلة.

ـ معذرة، لم أفهم قصدك.

ـ أنت كاتب معروف ولك متابعون كثر، نريدك أن تكتب بضعة مقالات في الصحف.

ـ أي مقالات؟ وأي صحف؟

ـ ستعلم في الوقت المناسب، فقط نريد الحصول على موافقتك. بالطبع أنت تعلم أننا لا نجبر أحدًا على التعاون معنا.

ـ وابنتي؟

ـ لا تقلق، كل الإمكانات ستكون مُسخرة للعثور عليها في أسرع وقت.

ساد الصمت لفترة بيننا حتى قطعه العقيد «أسامة» قائلاً:

ـ ستوصلك سيارتنا للمنزل.

رددت على الفور:

ـ كلا، لا أريد الذهاب للمنزل قبل العثور على ابنتي.

غمز العقيد «أسامة» بعينه ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة خبيثة، وهو يقول بنبرة ذات مغزي:

ـ إذن ربما تريد أن نوصلك للمنزل الثاني.

ارتبكت قليلاً وهممت بالرد لكنه بادرني متهكمًا:

ـ عندك شك أننا نعرف عنك كل شيء؟ على أية حال لا تقلق، سرك معنا في أمان.

لم أجادل معه في شيء، كان كل همي أن أغادر هذا المكان في أسرع وقت حتى أكمل رحلة البحث عن «حياة».. ألقيت بجسدي المتعب على الأريكة الخلفية للسيارة بعد أن أخبرت السائق بالتوجه إلى منطقة المعادي، سرعان ما تسبب هواء تكييفها البارد في حالة من الاسترخاء والهدوء..

وأخيرا بدأ النعاس يتمكن مني..

* * *

رغم قسوة الحياة في غالب الأحيان، فإن فيها لحظات نادرة تمنحك خلالها فرصًا لم تكن تحسب لها حسابًا.. في تلك اللحظات تنفتح أمامك نافذة صغيرة، ترى من خلالها أملاً يحمل في طياته حلمًا بالسعادة.. يتحول هذا الأمل إلى حقيقة لتحصل على لقاء لم تكن تنتظره، لقاء يجمعك بنصفك الثاني.. الذي يكمل روحك ويحس بانفعالاتك، بغضبك وحزنك وفرحك.. يتقبلك كما أنت، بكل عيوبك ونواقصك.. يمد يده نحوك بمرآة الحقيقة؛ فلا تخشى أن تنظر فيها إلى وجهك دون أقنعة..

هذا ما جرى مع «داليا» بالضبط حين التقت «معتز» أول مرة في حفل مدرستها السنوي.. فعندما نظرت في عينيه أحبت ما شاهدته فيهما.. لم تتردد كثيرًا وألقت بمفتاح قلبها نحوه؛ فالتقطه على الفور.. بكل بساطة، لكنها كانت بساطة راقية، وهذا كان أكثر ما يحيرها في شخصية «معتز».. فرغم تلك البرودة التي كانت واضحة عليه، كانت

نوعًا من البرود الراقي كذلك الذي يميز أبطال الأفلام القديمة.. كأنه «أحمد رمزي» أو «عمر الشريف» بالأبيض والأسود، تمامًا كما رسمت صورتهما في مخيلتها حين كانت طفلة صغيرة.. كانت له طريقة غريبة في الحفاظ على نوع من الرقي في كل الظروف..

ببساطة هكذا بدأت قصتها مع «معتز»؛ فهو لم يكن وسيمًا أو جذابًا إذا قارنته بكل الشباب الذين يحومون حولها.. لكنه بمنتهى البساطة كان مختلفًا، كانت في عينيه نظرة غريبة حارت «داليا» كثيرًا في تفسيرها.. هل هي نظرة حزينة؟ أم هي نظرة واثقة؟ فقط أحبت هذه النظرة، وعشقت كل تفاصيلها..

مع مرور الوقت وازدياد مساحة الحرية التي منحتها لها نزوات أمها، توطدت علاقتها مع «معتز» بعد أن أنهت دراستها الثانوية.. التحقت بكلية التربية الموسيقية وأصبح لا يمر يوم دون أن تراه، لا يصح أن تنتهي ليلتها دون أن تسمع صوته الدافئ عبر التليفون.. وأمها لا تدري شيئًا عن أمرها، أو لعلها كانت تعلم ولكنها لم تهتم.. عرفت منه كل شيء، وأخبرته بكل شيء.. أخبرها عن والده المخرج الشهير الذي تركه وأمه ليهيم مع الفنانات والراقصات.. حكت له عن أصدقاء أمها، الذين تبدلهم كأنها تبدل ثيابها.. مع مرور الأيام، تحول شغفها به وحبها له إلى تعلق..

في أحد الأيام كانت في حالة سيئة بعد أن سافرت أمها لقضاء يومين بالإسكندرية برفقة واحد من عشاقها.. كان الوقت متأخرًا في هذه الليلة، طالت مكالمتهما لمدة طويلة.. كان يحاول تهدئة ثورتها على أمها، يخبرها أنه لا خيار أمامها سوى التحمل حتى تنتهي من دراستها..

حينها ستكون لها حرية اتخاذ ما تراه مناسبًا لحياتها.. أخبرته في هذه الليلة أنها ستنتحر؛ فلم يعد لوجودها في هذه الحياة التعسة سبب.. لم يفكر «معتز» كثيرًا، وأخبرها أنه سيأتي إليها..

حين سمعت «داليا» صوت جرس الباب لم تتردد، ولم يصبها الارتباك.. فتحت له على الفور، وأدخلته إلى الصالون.. جلست بجواره هادئة، كأنهما جالسان في مكان عام.. كان «معتز» أكثر ارتباكًا منها، كأنه لا يعرف من أين يبدأ.. يتكلم بسرعة وحديثه لاهث متقطع، ينتقل من موضوع لآخر دون أن ينسق حديثه حول أمر واحد.. وفجأة مد يده يمسك بيدها، ويضغط عليها.. تركتها له للحظة يحتفظ بها بين كفه، تستمع بذلك الدفء والحنان الذي تبعثه يده في روحها.. كانت في يده حياة كاملة، أصابعه تتكلم لغة هي وحدها التي تفهمها، ترسل إشارات إلى كل جزء فيها.. إلى قلبها وعقلها، خصرها وصدرها.. حين أحست بالسخونة والانفعال يسريان في كل جسدها سحبت كفها بسرعة، وأخبرته أنها ستعد له شيئًا يشربه.. هرولت مسرعة نحو المطبخ، وبقي هو متسمرًا في مقعده لا يعرف ماذا يفعل..

لم يطل مكثه في الصالون؛ فتبعها سريعًا للمطبخ.. ووقف عند مدخله حائرًا، التفتت إليه حين سمعت وقع قدميه.. رفعت عينيها نحوه، وبقيت صامتة كأنها تنتظر منه شيئًا.. تلاقت أعينهما، كانت نظراته تغرقها وتذيبها.. تسارعت أنفاسها، وعلت دقات قلبها بشدة حين خطا تلك المسافة القصيرة التي كانت تفصلها عنه.. ودون أن يتكلم احتواها بين ذراعيه؛ فنامت على صدره.. رفع رأسها قليلاً ثم أسند خده على خدها، ضغطه في رقة وحنان، وعفوية.. كان عقلها

واعيًا تمامًا، منتبهًا لكل حركاته، لم تذب بين يديه بعد.. كانت متشوقة لمعرفة ماذا سيحدث بعد ذلك..

لم يطل انتظارها، أبعد خده عن خدها ووضع مكانه شفتيه.. منحها قبلة طويلة صامتة، بدأ وعيها يتشتت.. لكنها لم تفهم ما يحدث، كان كل ما تريده أن تبقى هكذا للأبد.. أغمضت عينيها كأنها تمنع أي صورة قد تراها من تشتيت ذلك الشعور الرائع الذي تحسه.. نزل بشفتيه حتى ألصقهما بشفتيها، وبدأت تغيب هي عن الدنيا.. لكن شفتيها بقيتا ثابتتين مغلقتين، تتلقيان في هدوء الدرس الأول من دروس العشق.. بقيت شفتاه فوق شفتيها فترة، طويلة أو قصيرة، لم يعلما في حقيقة الأمر مدتها.. ولكنها كانت فترة تمنيا ألا تنتهي، ودّا لو بقيت الدهر كله..

فجأة رفع شفتيه عن فمها، وابتعد عنها ثم قال متلعثمًا:

ـ أنا آسف.

قالها ثم غادر المنزل مسرعًا..

* * *

(٥)

وصلتُ إلى شقتي مع شروق الشمس تقريبًا، لم يستغرقنا الطريق سوى ساعة واحدة على ما أظن.. رغم ذلك كنت أشعر بالإعياء، منهكًا من تلك الفترة العصيبة التي قضيتها ما بين اختطافي والتحقيق معي.. فتحت الباب بصعوبة، وألقيت نظرة فاترة على غرفة الاستقبال.. كانت تسبح في ظلام حالك ويلف أجواءها صمت مريب، تسيطر عليها رائحة غريبة مزيج من العطن والعفن.. ضغطت على زر الإضاءة؛ فبدا كل شيء في الشقة مبعثرًا مقلوبًا، كما لو أنها تعرضت للسرقة.. مقعد من مقاعد الطعام ملقى على جانبه، ملابس مكرمشة في كل مكان.. تخطيت بتعب زجاجات بيرة فارغة وبقايا علب البيتزا الكرتونية، وصلت في النهاية لأريكتي المفضلة.. رميت جسدي المنهك فوقها، جلست أخفي وجهي بين راحتي..

«يبدو أنه لا يوجد أحد».. هكذا حدثت نفسي..

لا أعلم لماذا أصابني الدوار فجأة، علمت أنها واحدة من نوبات

الاختناق السخيفة التي باتت تنكد على حياتي.. صوبت بصري نحو المنضدة المجاورة للأريكة، وقد تراصت فوقها العديد من زجاجات وأشرطة العقاقير الطبية.. خليط ساحر من المهدئات والمسكنات، ومضادات الاكتئاب، والحبوب المنومة..

ابتلعت حبتين، أظن أن لونهما أحمر، خمنت أنهما ستُذهبان عني نوبة الاختناق اللعينة.. تكومت فوق الأريكة، وعيناي مثبتتان على السقف.. كان رأسي يؤلمني، يداي تنضحان بالعرق البارد.. معدتي متشنجة، خفقان مخيف كقرع الطبول يضرب صدري.. ورغمًا عني بدأت الأفكار المرعبة تتصارع في عقلي.. حاولت المقاومة، لكني فشلت في آخر المطاف..

لم يسبق لي أن كنت قريبًا من النهاية مثل هذه اللحظة.. كنت أشعر بالغرق، كأني أغرق داخل نفسي.. لا ريب أن خاتمتي ستكون هكذا، غريقًا في داخل ذاتي.. حاولت الهرب من هذا المصير المفزع، فأغمضت عيني ولكني أخفقت.. رأيت داخلي مظلمًا باردًا، فارغًا من أي شيء.. استسلمت للأمر، وتهاويت في جوف الأريكة.. وبينما كنت أغوص في حالة من السبات، شعرت كأني أنفصل برفق عن العالم وآلامه.. جسدي يختفي تدريجيًا، والحياة تلفظني شيئًا فشيئًا..

«كفى نومًا، أيها الكسول»..

فتحت عيني بمشقة، أعمتني الإضاءة المبهرة فوضعت كفي أمام وجهي.. حاولت أن أصرخ معترضًا، لكن صوتي لم ينصع لرغبتي، كان الجفاف يفتك بحلقي.. أتنفس بصعوبة والعرق يغمرني، لكني ما زلت حيًا.. سمعت أصوات حركة تصدر من خلف الأريكة، كان

صوت الستائر.. اعتدلت جالسًا بصعوبة، التفت بحدة و...

طيف أنثوي يقف في وسط الضوء، لم أستطع تمييزه من وهج ضوء الشمس.. متأففًا نهضت بصعوبة.. كنت أشعر بدوار عنيف، رأسي يؤلمني بشدة.. ربما لم تقتلني تلك الحبوب الحمراء، لكنها قذفتني في غياهب لم أستطع التخلص منها بعد..

كانت عيناي تؤلمانني بشدة، كأن حريقًا شب بهما.. تحاملت على نفسي، مستندًا على الحافة الخلفية للأريكة، حتى وصلت إلى النافذة.. أسرعت بإغلاق الستائر مرة أخرى.. تنهدت في راحة حين ساد الظلام المكان، أصبح في إمكاني فتح عينيّ مجددًا..

تحسست بيدي حتى ضغطت على زر الإضاءة.. على ضوئها الخافت رأيتها؛ فارتسمت ابتسامة شاحبة فوق شفتي.. كانت تقف في منتصف الغرفة بالضبط، تضع يديها على خصرها الدقيق.. تبدو على وجهها الحليبي حمرة الغضب، تلمع عيناها الزرقاوان من الغيظ.. تنفخ من بين شفتيها الحمراوين فتتطاير خصلة من شعرها الأشقر الناعم فوق وجهها..

عدت للارتماء من جديد فوق الأريكة، غمغمت باستسلام:

«أين كنتِ؟!»

ردت بصوتها الذي سحرتني نبرته منذ أول مرة سمعته فيها:

ـ كنت أبحث عنك!

ـ كيف ذلك؟!

ـ لقد أقلقتني عليك.

ـ أنا بخير.

ـ حسنًا، لا داعي للكسل..

ـ أشعر بالتعب.

ـ حان وقت الاستحمام.

قاومتها بإرادة مسلوبة، كنت لا أقدر على رفض طلباتها.. سحبتني من ذراعي حتى أوقفتني تحت الماء الفاتر.. قبل أن تغادر الحمام سمعتها تقول في حزم:

ـ هيا، أفق.

فتحت عيني بصعوبة، كان جفناي ثقيلين جدًا.. وجدتني ما زلت ممددًا فوق الأريكة، والصالة غارقة في ظلام دامس.. كان العرق يغمر كل جسدي، بلل ملابسي.. تمتمت في ضيق:

«يبدو أني قد غفوت لفترة طويلة، اللعنة على تلك الحبوب الحمراء..»

حاولت الوقوف إلا أن دوارًا عنيفًا كاد يطيح بتوازني؛ فاستندت بذراعي على مقبض الأريكة لثوان قليلة حتى استعدت اتزاني.. توجهت للمطبخ لإعداد كوب من القهوة لعلها تعيدني لشيء من التركيز المفقود.. لم أضغط زر إضاءته، كانت كل تفاصيله وأركانه محفورة في ذاكرتي، تمامًا كما أحفظ ملامحي.. كم قضيت في هذا المطبخ من ليال طويلة ألتقط الأفكار من بين ثنايا عقلي، وأشكلها لأصنع منها حيوات وشخوصًا متكاملة..

«لم تعد لذلك فائدة»..

هززت رأسي بعنف طاردًا عنها تلك الدوامات البائسة، ثم ابتسمت في فخر حين نجحت في الوصول إلى الكنكة.. في الظلام ومض ضوء أزرق خافت، وسريعًا تحول الغاز إلى ضوء أصفر عريض.. على لهبه أخذت أعد قهوتي بعناية، وأنا أنظر بلا مبالاة نحو ظلال أكوام الأواني التي تراكمت في حوض المطبخ وتلال الصحون والأكواب المتسخة متناثرة في كل مكان.. فتشت في الدولاب العلوي عن فنجان أو كوب نظيف، نجحت بعد تخطي الكثير من المعلبات التي فسدت لانتهاء صلاحيتها في الغالب.. أخذت قهوتي ثم اتجهت نحو غرفة المعيشة، ورائحة العطن تزكم أنفي.. فتحت النافذة العريضة، التي تحظي برؤية مميزة لكورنيش نيل المعادي.. تسلل منها ضوء القمر الأبيض برفقة نسمة باردة، وشيء من الانتعاش بعد أن غادرت رائحة العطن..

ألقيت جسدي باستمتاع، لم أعتده منذ فترة ليست بالقصيرة، فوق أريكتي المفضلة.. أخذت أرشف من القهوة القدر اليسير، متلذذًا بمذاقها المُر.. ابتسمت حين تذكرت ذلك الحلم الغريب، الذي أيقظني من نومي.. واتسعت ابتسامتي حين تذكرت كيف تعرفت عليها.. كيف التقيت «دُنيا» أول مرة..

في ذلك الوقت كنت محطمًا تمامًا، جالسًا بمفردي في مكاني المعتاد.. على سلم استديو جلال، حيث شهرة أبي ومجده.. أحتسي قهوتي الصباحية، أحاول أن أظهر موهبتي وبراعتي.. فمنذ تخرجي من الجامعة وأنا مستغرق في الكتابة، كنت مولعًا بالأدب اليوناني القديم.. أمضي أوقاتًا

طويلة في محاولة كتابة شيء له قيمة، أستنفد في تلك المحاولات كل طاقتي ومشاعري.. كان كل همي أن أنجح.. كلا، كان هدفي الحقيقي أن يكون بريق نجاحي أكثر لمعانًا من نجاح أبي.. ورغم سعيي وراء حلمي لم أتنازل أبدًا عن مبادئي؛ فلم أتناول موضوعًا مسفًا.. بل على العكس، كنت أسعى دائمًا لمناقشة القضايا الإنسانية الكبرى.. نشرت روايتين لم تلقيا رواجًا تجاريًا، لكن بهما صرت معروفًا ككاتب شاب يسعى لنقش اسمه في سجل الخالدين..

«صباح الخير، أنت تعرف تكتب؟!»..

هكذا سمعت صوتها أول مرة.. كان رائقًا حانيًا، وإن كانت به بحة بسيطة تدل على اعتيادها التدخين.. التفت ناحيتها، كانت واقفة بجواري بالضبط.. عقدت الدهشة لساني حين وقع بصري عليها.. خمنت أنها في منتصف العشرينات أو ربما بلغت الثلاثين، جميلة فاتنة ساحرة.. كانت من ذلك الطراز الذي يصلح للعمل في السينما، نجمة شباك من الطراز الأول.. ذلك النوع الذي يخطف قلوب الجمهور فور أن يقع بصرهم عليه..

كانت كذلك بادية الذكاء، فلما رأت ما أصابني من اضطراب بادرت بالجلوس على السلم إلى جواري.. وخرج صوتها فاتنًا من بين ابتسامتها الساحرة:

ـ على فكرة، أنا أحب الأدب جدًا.

قلت على الفور دون تفكير:

ـ والأدب أيضا يحبك يا آنسة.

ـ آنسة! هههههه.

شعرت بالحرج لاندفاعي؛ فتمالكت نفسي سريعًا ثم قلت بنبرة جادة:

ـ ماذا تريدين بالضبط؟

ـ علمني الكتابة.

ـ هل كتبت من قبل؟!

ردت باستهتار:

ـ لا.

ألجمتني جرأتها واستهتارها، لكني قلت محاولاً سبر أغوار هذه الفاتنة الغامضة:

ـ أي أنواع الأدب تحبين؟!

ـ كل الأنواع، لكني أفضل الفرنسي.

فهمت مقصدها؛ فصوبت نظراتي مباشرة نحوها ثم سألتها:

ـ ماذا تريدين حقًا؟

ـ أريدك أنت، أن تعلمني.

ـ لماذا أنا تحديدًا؟!

ـ لأني أعرفك، وأعرف قدرك جيدًا.

ـ أقرأت لي شيئًا؟

ـ طبعًا.

استطردت وهي تمد يدها مودعة:

ـ ولكن هذا لا يهم، أعتذر عن اقتحامي لجلستك.

قلت لها ونعومة يدها تلسع كفي:

ـ حسنًا، لا يوجد ما يمنعنا من المحاولة.

لمع في عينيها بريق شق عليّ أن أطفئه.. إلا أنني كنت أخشى أن أقطع على نفسي وعدًا لن أتمكن من الوفاء به؛ فقلت:

ـ لكني لن أعدك بشيء حتى نقيّم نتائج المحاولة.

أشرق وجهها وهي تقول:

ـ قل ما شئت، ولك مني كل السمع والطاعة.

ـ حسنًا، ستقرأين واحدًا من أعمالي، ولتحاولي أن تضعي له نهاية مخالفة لما اخترت.. نلتقي بعدها للنقاش.

ـ اتفقنا، نلتقي غدًا في نفس الموعد والمكان.

ـ غدًا؟! لا أظن أنك ستتمكنين من إنهاء القراءة في هذه المدة الوجيزة.

ـ قلت لك إني أحفظك.

همت بالرحيل، لكنها عادت وقالت بنبرة هامسة:

ـ بالمناسبة، اسمي «دُنيا».

غَادرتْ فجأة، تمامًا مثلما اقتحمتني، وتركتني صريع الحيرة والذهول.. مر وقت طويل منذ أن شعرت بقيمة ما أفعل، بل على العكس كنت أشعر أن اهتمامي بالكتابة هو السبب الرئيس في شعوري البغيض بالفشل..

أفقت من متاهة ذكرياتي لمّا وضعت كوب القهوة على شفتي، ووجدته فارغًا.. ارتسمت على شفتي شبح ابتسامة حين تذكرت أن الرغبة في مساعدتها لم تكن هي الدافع لموافقتي على طلبها.. في حقيقة الأمر استفدتُ كثيرًا من وجودها في حياتي..

كنت أنا من يطلب المساعدة..

كنت أحتاج للشعور بأني ما زلت حيًا..

* * *

العادة أو التعود هو ما يجمع بين رجل وامرأة.. ورغم ذلك فمن النادر أن تجد امرأة بدأت حياتها برجل واحد.. ففي غالب الأحيان تبدأ المرأة حياتها العاطفية بتقليب عينيها بين الرجال، تمامًا كما تقلبهما بين واجهات محلات الملابس قبل اختيارها لثوب جديد.. وكما قد تعجب بأكثر من ثوب، أيضا قد يعجبها أكثر من رجل.. تطل في كل منهم وتهفو نفسها إلى لمسه.. تتخيل صوته وأنفاسه في الهاتف يدفئان وحدة لياليها الباردة.. تنظر لشفتيه وتتمنى أن تتذوق طعمهما.. بل إنها قد تتمادى في أحلامها وتذوق فعلاً أكثر من شفة.. إلى أن تتعود على مذاق واحد، حينها تسمي تعودها هذا حبًا..

«مجرد تعود، لم أحبه»..

هكذا تمتمت «داليا» في ضيق.. كانت راقدة فوق فراشها منذ أن هاجمتها ذكرى أول قبلة وشمها «معتز» على شفتيها، وحفر بها مذاقه في وجدانها.. كان أكثر ما يثير حنقها حين تسمع مَن حولها يقولون إنها تحبه، كانت تصرخ في حدة وعصبية.. تخبرهم أنها لا تحبه، ولكنها فقط تعودت على وجوده بجوارها.. والتعود له أحكام بالغة القسوة.. فهو يسيطر عليك ويخضعك، بل إنه يمحو شخصيتك.. حتى إذا حرمت مما تعودت عليه؛ فإنك تفقد أعصابك تمامًا.. تحطم من حولك، ثم تبدأ في تحطيم نفسك..

نفضت عن نفسها الحزن ثم قامت من الفراش، توجهت نحو الصالون.. جلست خلف البيانو الخشبي الأنيق، تحاول السيطرة على أعصابها.. لا يوجد أفضل من الموسيقى في مثل هذه الأوقات السيئة، كانت أناملها متخشبة قليلاً.. لم تعزف منذ وقت طويل، أو حتى تتدرب.. بدأت أعصابها تهدأ شيئًا فشيئًا، ومعها لانت أناملها.. تسربت من بينها نغمات رائقة لمقطوعة «خللي بالك من عقلك»، التي كانت تعشقها.. مع تصاعد إيقاع اللحن تصاعدت الذكريات لعقلها من جديد، ودمعت عيناها حين تذكرت ما كان.. رأت ما جرى ينبعث أمامها حيًا من جديد، كأنه حدث بالأمس القريب..

شاهدت نفسها، بعد مغادرة «معتز» لمنزلها، تدور في أرجاء المنزل بخطوات راقصة.. ثم تهرول لغرفتها مسرعة، وتغلق الباب خلفها بالمفتاح.. تخلع كل ملابسها، وتقف عارية تمامًا أمام المرآة.. تتأمل أنوثتها في سعادة، كل ثنية في جسدها الممشوق وكل تفصيلة.. رغم جمالها الواضح تمنت آنذاك لو استدار ردفاها أكثر، لو ارتفع صدرها

قدرًا يسيرًا.. ثم بدأت في الرقص، هكذا دون أي موسيقى.. رددت شفتاها كل ما دار بينهما من حديث بنغمات ممطوطة، كأنها إيقاع لحن راقص.. كانت ترقص في مرح لا تعرف له سببًا، كأنها كانت تسبح في الهواء.. سيطر عليها شعور جارف بالفرحة، إحساس غريب بأنها أصبحت مكتملة.. أخذت تتمايل أمام المرآة، وتبتسم لخصرها حين يتلوى مع استداراتها.. تغمز لصدرها حين يهتز مرتعشًا لحركاتها، كانت في حقيقة الأمر لا ترى في المرآة إلا «معتز».. كانت ترقص له وحده..

في الحياة أوقات قليلة تندفع فيها حياتك بكل قوة نحو ما تظنه نورًا.. لحظات نادرة تتفتح خلالها أشياء بداخلك، لم تكن تعرفها من قبل.. فتشرع في التحليق بعيدًا نحو الأعلى، مخالفًا كل قواعد الجاذبية.. تصبح اختياراتك عندئذ كلها صحيحة، تتحول كل أسئلتك إلى إجابات.. يغادر الخوف والحزن قلبك، مفسحَيْن كل المجال أمام الحب..

رغمًا عنها توقفت أناملها عن العزف فجأة.. وسطعت أمامها ذكرى ذلك اليوم البعيد، كانت أمها قد سافرت كعادتها آنذاك في واحدة من نزواتها المتكررة.. عندما جاءها «معتز» في المنزل، جلس إلى جوارها على أريكة الصالون كعادته، وأخذ يتحدث طويلاً.. كان يتكلم عن كل شيء، عن حياته وأحلامه، عن علاقته بأمه وأبيه.. كان يتكلم بصوت كأنه يتنهد، وكأنه يحلم وفي عينيه كان يلمع ذلك البريق الذي تعشقه.. ومع كل كلمة تنطق بها شفتاه كانت أحاسيس «داليا» ترق.. يختفي الخوف تدريجيًا من داخلها، ويحل الأمان محله.. شعرت وقتها أنها في عالم رقيق شفاف، تمنت ألا تغادره أبدًا..

توقف عن الحديث فجأة، ونظر في عينيها.. ثم طافت عيناه في وجهها، كأنه يراها أول مرة.. طالت نظراته لها، وازداد البريق في عينيه.. كانت «داليا» تنظر إليه في استسلام، مطمئنة كأنها تنتظر منه شيئًا.. نظراته أيقظت لديها نوع من الترقب، إحساس بأنها على وشك البدء في مغامرة مجهولة..

جذبها من يدها برفق، واستجابت له مستسلمة.. عيناه أكثر اتساعًا، لكنهما كانتا هادئتين حتى كادت «داليا» تنام بينهما.. ووجدت نفسها تتلقى درسها الثاني في العشق.. لم تعد تدري ما يحدث، شعور غريب لم تختبره من قبل.. كانت تشعر بألم ضغط أصابعه القوية على ذراعيها، ولكن جسدها كانت يتفتح كزهرة في موسم الربيع..

كان ما يحدث سريعًا إلى درجة أن عقلها آنذاك عجز عن ملاحقته.. قبضتاه تكادان تعتصران خصرها.. شفتاه فوق شفتيها؛ فتصنعت المقاومة.. لكنها وجدته ينزل إلى عنقها يقبله، ويداه تفكان أزرار قميصها.. مع قبلاته كان جسدها يتفتح أكثر فأكثر.. شعرت بأنه يفتش في أعماقها، وتمنت هي لو كانت في أعماقه.. سرعان ما بدأ كل شيء فيها يهوي، ولكن للأعلى.. صحبها معه في رحلة ساحرة، تهاوت فيها روحها إلى أعماق الحب.. أو ما كانت تظن أنه الحب..

«لا بد أن نعيش هذا الإحساس، لندرك أن اللحظات الجميلة في حياتنا خاطفة.. لا تدوم إلا قليلاً».. غمغمت «داليا» في حزن، ثم عادت تجتر ذكرياتها في ألم..

بدأت لقاءاتهما الحميمية تتكرر في بيتها، وأصبح «معتز» مع مرور

الوقت عادة لا تستطيع الاستغناء عنها.. تتصل به فور استيقاظها، وتبثه الأشواق قبل نومها.. تقابله كل يوم تقريبًا، وتفتح له بابها كلما سمحت لها الظروف.. كانت أحيانا تفكر في المستقبل بخوف، وتخشى على مصير علاقتها معه.. وأحيانا أخرى كانت تفكر في خطط الزواج به، لكن في الأغلب كان جل همها أن تلقاه.. اختفى إحساسها بالخوف من المستقبل المجهول.. ووراء اندفاعها الأعمى خلف نشوة الحاضر كانت عيناها معصوبتين برباط الحب، وفكرها مقيدًا بأغلال الهوى..

ازداد اندفاعها خلف عواطفها أكثر، وصارت مشاعرها أكثر صخبًا.. أصبحت تعيش في دوامة من الجنون، وهي لا تهدأ.. تريد كل يوم مغامرة جديدة، تجربة أخرى يتفتح لها جسدها.. كانت تحدث نفسها بأن الناس مخطئون، حينما قالوا إن ما نحصل عليه خلسة يماثل ما نحصل عليه علانية.. فشعور اختلاس المتعة لا يضاهيه شعور؛ فكيف نقارن بين ما يحدث بالليل وما يحدث بالنهار.. لم تكن تدري السبب في ذلك، ولكنها خمنت أنه ربما لأن أعين الناس تكون مغمضة في هذا الوقت.. لم تهتم، كان ما يشغلها أنها أخذت من الليل الكثير.. وأعطت أكثر!

لم يمر وقت طويل حتى بدأت دماؤها تغير من دورتها المعتادة.. ارتعشت عيناها حين تذكرت أنها لم تهتم بهذا الأمر وقتها، ولم تشعر بالحيرة.. لم يؤنبها ضميرها، ولم يؤلمها الشعور بالخطيئة.. حتى بدأت تلك التقلصات تؤلم بطنها الرشيق، وإحساس غريب بالقيء أصبح ملازمًا لها ليوافق هذه التغيرات..

أفاقت من ذكرياتها على ضحكها بصوت مرتفع.. كانت تضحك في

حقيقة الأمر على نفسها، على عذابها وخيبتها.. كيف سمحت لنفسها بالتعود عليه لهذه الدرجة، كيف سمحت له بالتجذر داخلها كل هذا الحد.. الآن تحول كل هذا إلى مقت وبغض، حتى مذاق شفتيه باتت تذكره مرًا كالعلقم.. أمها علمت بذلك منذ أن اكتشفت علاقتها به، أخبرتها أنه غير مناسب لها.. لكنها للأسف لم تقتنع برأيها..

* * *

(٦)

جئت إلى هذا العالم حين لدغت أفعى الغرام أمي.. حين أتى أبي لخيمتها ليلاً وقد ذهبت الخمر برأسه؛ فكنت ثمرة عشقهما المقدس.. كان أبي «أيولوس» ملك تساليا يهم بالدخول على أمي بعدما فتن بها، عشق كل تفاصيلها، لم يتمكن من إحكام لجام نفسه فزحف في هذه الليلة فوق بطنها الأبيض، وبث في أذنها عبارات الوله والهيام.. عانقته في عشق وسمحت له أن يتخللها.. ولما فرغ أبي وقذفني داخلها، تراجع مرتعدًا من فظاعة فعلته، لكنه قرر أن يتزوجها بعد أن يكفر عن خطيئته.. وأرسل قربانًا إلى «زيوس» كبير الآلهة.. في هذه الليلة برقت السماء ورعدت، هطلت الأمطار بغزارة لم تشهدها الأرض من قبل..

هذا أنا «سيسيفوس» وهذا نسبي؛ فمن أنت أيها الغريب؟! لا علم لي على وجه الدقة، لكني أحسبك قريب الشبه مني.. فهذا الإلحاح الذي لديك لم ينقطع لدي أيضا منذ صباي.. لكني أعجب من إصرارك على إقلاق روحي المعذبة في هذا المكان الموحش؟!

لمَ تلح بالسؤال وتبحث عما لا أعرف له جوابًا؟! أتظنني أعلم أكثر مما تعلم؟! كلا أيها الغريب، أنت واهم.. فأنا منذ أن زارني الموت أهيم وحيدًا في الظلمة.. كطائر أعمى لا يدرك من الفضاء الواسع سوى أنه يسبح وسط سواد يليه سواد مثله.. هكذا أتخبط وحدي في ظلمة تليها ظلمة، بعضها فوق بعض..

أهذه هي الجحيم؟! صدقني لا أعرف.. فلو كانت هي لكنت أنا روحًا خبيثة، ولكنني أبدًا لم أُرِد أن أكون منهم.. فقط كنت أبحث بكل جهدي عن المعرفة والحقيقة.. ربما لو كنت من أولئك الطيبين لكان حظي أفضل، ربما كنت أسبح الآن في النور.. صدقني لا أدري..

فمنذ أن غادرت الحياة، وأحاطت بي العتمة زمنًا لا أقدر على إحصائه، وأنا لا أرى أحدًا من عالمكم، أصبحت غير قادر على السمع أو الكلام.. بين الحين والآخر يقلقني بعض أمثالك، يمطرونني بأسئلة لا حصر لها، يظنون أني أمتلك إجابات.. لكني لا أعرف شيئًا هنا سوى ما عرفته في حياتي، أجتره وحدي مرات ومرات.. وفي كل مرة يزداد الخوف في قلبي حتى بت لا أعرف صاحبًا سواه.. ولم أعد أبتغي سوى الالتزام بتطبيق العقوبة التي حكم بها عليّ؛ فربما حين تشرق على روحي الأنوار مرة أخرى يسمحون لي بمعرفة الحقيقة..

أشد ما يحزنني فقط هو عدم قدرتي على تحقيق نبوءة أمي.. «إناريتي» الكاهنة المستنيرة.. دائمًا ما كانت تخبرني أن قدري هو العظمة والخلود.. أخبرتني أني سأتزوج بواحدة من بنات «أطلس»، وقد حدث.. تزوجت بـ«ميروبي» الحورية، وأنجبت منها ثلاثة أبناء.. وفي نبوءة أخرى حذرتني من ذلك الطائر الكبير، الذي يحمل الأنثى الجميلة.. أنذرتني بأن غضبه عظيم، وعقابه شديد.. ربما كنت صغيرًا في تلك الأيام؛ فلم آخذ تحذيراتها

بما يكفي من الجد.. لكني الآن بت موقنًا بأنها لم تقل لي سوى الحق..

كانت حياتي وقتها سعيدة هنية، لا أطمح في أي شيء آخر.. فعندي قطيع كبير من الماشية، ولي زوجة جميلة وأبناء ذكور يخلدون اسمي من بعدي.. لم يكن هناك شيء ينغص حياتي.. حتى جاء ذلك اليوم المشؤوم الذي أتى فيه «أتولوكوس»..

كان اللعين ماكرًا خادعًا، لا يحفظ عهدًا ولا يفي بوعد.. عنيفًا قويًا، وسمعت فيما بعد أنه من علم الإله «هيراكليس» فنون القتال.. أخذ البغيض يسرق ماشيتي شيئًا فشيئًا، دون أن أشعر، فقط كنت ألاحظ أنهم يقلون يومًا بعد يوم.. حتى غمرني الشك وتملكتني الريبة؛ فلاحظت أن ماشيته في ازدياد دونما سبب معلوم.. لكني لم أقدر على إثبات سرقته، كان المأفون لصًا محنكًا.. كما أني كنت أخاف من نسبه الذي من المؤكد سيضمن له الحماية، وسيؤمنه من العقاب.. فهو ابن «خيوني» جميلة الجميلات، عشيقة الإله «أبوللون» وعشيقة الإله «هرميس» أيضًا..

لكن الظلم الواقع عليّ أثار الحمية في نفسي، وقدح الاضطهاد زناد عقلي.. فقررت أن أتصدى للخديعة بالخديعة، وهداني تفكيري إلى خطة محكمة، شرعت في تنفيذها على الفور.. دققت علامات مميزة في حوافر ماشيتي، وانتظرت حتى جن الليل مختبئًا في مكمن آمن.. هناك رأيته يتسلل في حذر إلى حظيرتي، ويسحب عددًا من الماشية خارجها.. ولما أرسلت شمس الصباح أشعتها، خرجت من مخبئي أتفحص الأرض المبللة بفعل الندى.. تهللت أساريري حين وجدت آثار الحوافر واضحة على الأرض، مميزة بتلك العلامات التي دققتها عليها.. صحت في الملأ؛ فتجمع البشر والآلهة ما بين مصدق ومكذب.. تتبعوا من خلفي آثار الحوافر في الطين حتى توقفت عند باب حظيرة

«أتولوكوس».. فتحت الباب عنوة فوجدت ما هو ملكي، صرخت بأعلى صوتي «أتولوكوس».. في بداية الأمر بهت ثم أنكر، لكنه مع الدليل الدامغ انهار معترفًا يطلب المغفرة والعفو..

أتعلم أيها الغريب أن الشر لم يكن متأصلاً بداخلي أبدًا.. لا تتعجب؛ فالشر كحبات العقد إذا ما انقطع خيطه انفرطت حباته كلها.. صدقني أيها الغريب؛ فهذا بالضبط ما جرى معي.. لم أكن واثقًا من عدالة الجزاء الذي سيناله «أتولوكوس»؛ فربما سيشفع له «أبوللون» أو «هرميس».. قررت أن آخذ حقي بيدي، وليكن ما يكون..

تركت الجمع متحلقًا حول «أتولوكوس» المُدان، يتشاورون في الجزاء الذي سيناله، وذهبت خلسة لمنزله.. كانت له ابنة شابة تدعى «أنتيكليا» الفاتنة، تسللت حتى مخدعها.. كنت أظن أن ما من جزاء سيخمد النيران المستعرة في جوفي سوى أن ألطخ اسمه في الوحل، وأجلب له العار للأبد.. اغتصبت «أنتيكليا»، وهو أمر لو تعلم عظيم.. ففي هذا اليوم سرى مائي في جوفها، وولد بسببه «أوديسيوس» الذي أصبح بطلاً عظيمًا فيما بعد..

منذ ذلك اليوم تغيرت للأبد.. تأصل الشر في نفسي، وتدفق المكر والخداع في شرايييني..

هيه أيها الغريب.. لقد أثرت الأحزان في نفسي.. أرجوك دعني وحدي أدفع صخرتي لقمة هذا الجبل الشاهق.. ارحل فأنا أخاف أن ينظر إليّ «زيوس» من عليائه؛ فيجدني ما زلت مصرًا على العصيان..

* * *

لن تقترب من الحقيقة أبدًا
إلا بقدر ابتعادك عن الحياة..

(٧)

حضورٌ غريبٌ لابنتي سيطر على نفسي، وأحسست بوجودها مستكينة إلى جواري كما كانت معتادة.. نبهني ضوء القمر المتسرب من النافذة لتلك الدمية الملقاة على الأرض أسفل قدمي، وذلك المشط البلاستيكي الأبيض الصغير.. لم أفهم يومًا سبب تعلق «حياة» بتلك الدمية، ولا الممتع في قضائها أوقاتًا طويلة تحاول تسريح شعرها الذهبي.. ذكراها دومًا حاضرة أمامي، تحاصرني في كل وقت ومكان، كنت أعشق تفاصيلها.. رأيتها نائمة في فراشها الصغير وقد انحسر عنها الغطاء قليلاً، أرجعت رأسها إلى الخلف قدرًا يسيرًا.. كان فمها مفتوحًا بعض الشيء، وشعرها الأشقر الناعم يتناثر فوق وسادتها البيضاء.. أغمضت عيني بقوة، وهززت رأسي بعنف طاردًا تلك الأشباح التي تحاصر خيالي..

أحسست بغصة في حلقي وطغى عليّ إحساس جارف بالحنان والفقد، لكن كان برفقته إحساس آخر.. شعور غريب بأني خفيف جدًا، أو كأني أسبح في الفراغ.. تشاغلت عن هذه الأحاسيس المتضاربة وغطست

بجسدي في الأريكة الوثيرة محاولاً الاختباء من أحزاني، وبدأت ذاكرتي المشوشة تصطبغ بلون أسود.. حاوطني شعور الاختناق مجددًا؛ فأخذت نفسًا عميقًا ثم نهضت متجهًا للحمام..

«لا شيء أفضل من دش فاتر في مثل هذه الحالة».. هكذا حدثت نفسي..

حين خرجت من الحمام توجهت لغرفة النوم محاولاً البحث عن هدنة، ولو قليلة، من ذلك الصراع الذي يكاد يحطم عقلي.. تكومت على الفراش باحثًا عن النوم، غمغمت في يأس:

«يجب أن أنام، أنا في غاية التعب»..

عندما بدا أني سأستغرق في النوم، عادت الأفكار تثقلني وتتجمع حول عقلي.. كان لها صوت مزعج للغاية، كأنه طنين النحل حين يلتف حول خليته.. أيقنت بأن كل محاولاتي للنوم ستبوء بالفشل، فاعتدلت جالسًا..

تمتمت في حنق: «فليذهب النوم إلى الجحيم»..

مددت يدي بعصبية نحو الكومود بجوار الفراش، وتناولت شريطًا من أقراصي المهدئة.. ابتعلت حبتين دون ماء ثم فتحت درج الكومود، أخرجت منه ألبومًا قديمًا.. فردت جسدي المنهك على الفراش، أسندت رأسي على الخلفية الخشبية للفراش.. أخذت أقلب في الصور، ومعها تصاعدت لعقلي أصوات ما زلت أذكرها، كأنها حدثت بالأمس..

«والآن، مع نجمة الاستعراض، راقصة اللوتس الأولى.. الفنانة دُنيا»..

علا صوت مقدم الفقرات بهذه العبارة ثم عزفت الفرقة الموسيقية، رقصة شرقية على إيقاعات أصيلة رشيقة لـ«محمد فوزي».. هدرت عاصفة من التصفيق الحاد، تستقبل «دُنيا».. كان جمالها باهرًا حقًا، تخطف الأبصار بقوامها الرشيق البديع.. لونها الحليبي الرائق، المائل للحمرة بعض الشيء.. عيناها الزرقاوان الواسعتان تسيلان جاذبية ناعسة، أنفها الملكي يمنحها عزة وشموخًا.. شعرها الذهبي الطويل، المتطاير في انسيابية مع كل حركة أو استدارة، يعطيها أنوثة فوق أنوثتها الطاغية.. أضفت جبهتها العريضة على وجهها رونقًا خاصًا، وجلالاً رفعها إلى طبقة أخرى من البشر..

ـ يا الله!

ـ يا أرض احفظي ما عليكِ.

ـ كلما رأيتها سرت في روحي رعدة ورعشة.

تشاغلتُ عن مديح الحاضرين لفتنتها، وغبت عن أصواتهم أتابع في استمتاع حركاتها الراقصة.. كنت مأخوذًا بخفتها ورشاقتها، ابتسامتها التي سلبت عقلي.. كنت أشعر كأنها ترقص لي وحدي.. انتبهت على يد ممدودة أمام وجهي للمصافحة؛ مددت يدي وأنا أنظر لصاحبها..

ـ شرف كبير يا معتز بك.

رسمت على وجههي ابتسامة مجاملة حين رددت:

ـ أهلاً أستاذ هاني.

كان «هاني عجاج» صاحب ملهى اللوتس، قصير القامة بصورة

لافتة.. وجهه أبيض شديد الشحوب، ينتهي بذقن مدببة للغاية.. في عينيه نظرة غائمة على الدوام، تقبع خلف هالتين كبيرتين من السواد وجفنين ثقيلين منتفخين.. أمر أحد الجرسونات بإحضار الويسكي بدلاً من البيرة التي كنت طلبتها.. جلس دون استئذان ثم قال:

ـ لم أحلم بأن تشرفني أبدًا في محلي المتواضع.

ـ لماذا يا أستاذ هاني؟

ـ لنترك الرسميات قليلاً يا صديقي.. أنا اسمي هاني، فقط هاني.

لم أرد واكتفيت بأن رفعت كأسي تحية له؛ فأردف هو على الفور:

ـ أرجو ألا يسبب حضورك مشكلات مع صلاح بك الراوي.

ـ لا علاقة لوالدي بحضوري هنا.

ـ لكنك تعلم بالطبع أنه زبون دائم، بل من أهم الزبائن هنا.

أشحت بوجهي بعيدًا عنه، وجرعت كأسي دفعة واحدة.. سمعت صوته الرفيع يقول مجددًا:

ـ خطر لي أن أسألك، أي الفتيات تفضل؟

ـ ماذا تقصد؟

ـ أقصد أي فتاة تراها لائقة لك؟

ـ لماذا تسأل؟

لمعت عيناه بشدة حين رماني بنظرة غريبة ثم قال بنبرة ذات مغزى:

ـ بإمكاني أن أساعدك.

ـ أشكرك، لكني لا أحتاج إلى المساعدة.

أطرق «هاني» برأسه نحو كأسه ثم قال:

ـ جميلة جدًا ومتعددة المواهب، ولكنها للأسف لم تنجح في إقناع المنتجين.. كانت تعشق الرقص؛ فتلقفتها هنا.

ـ من تقصد؟

بحركة استعراضية لوح بيده الصغيرة الناعمة؛ فاهتز ذلك السوار الذهبي الغليظ الذي يزين معصمه ثم قال بصوته الرفيع:

ـ «دُنيا»، وهل هناك سبب آخر دعاك للمجيء هنا.

ـ لدي أسبابي.

ـ أتعلم أنها أكبر منك؟!

ـ لا يهمني السن، لا أبحث عن الزواج.

ـ تبحث عن المتعة إذن.

«هل ستأخذه مني يا هاني؟!»..

كانت «دُنيا» مقبلة على مائدتنا بخطوات ثابتة، بلا تلكؤ ولا افتعال، تنشر في الهواء شذا عطرها الفواح.. تلقي على الحضور نظرات الشكر وابتسامات المجاملة.. وقف «هاني» على الفور، وسحب لها مقعدًا للجلوس ثم قال:

ـ لا أقدر على غضبك يا ست الكل، ضيفك صاحب المكان كله.

تفحصته «دُنيا» بعناية ثم التفتت نحوي، وقالت بعد أن أمسكت يدي:

ـ كلا، ربما في يوم آخر.. لدينا الآن موعد هام.

في سيارتها التزمتُ أنا السكوت، وأشعلت هي سيجارة طويلة نفثت دخانها باستمتاع.. قطعت «دُنيا» حاجز الصمت بيننا حين تساءلتْ:

ـ أليس هذا أفضل؟!

ـ ما هو؟!

ـ أن نكون وحدنا.

سكت من جديد ولم أرد؛ فاستطردت هي:

ـ سنذهب لمكان على النيل في المعادي.. شقتي، أظن أنها ستعجبك.

طوال الطريق لم أنطق بكلمة واحدة، كانت كلمات «هاني عجاج» ترن في أذني.. ماذا سيكون رد فعل أبي لو علم بارتيادي نفس الملهى الذي يرتاده؟! بل ربما أكون برفقة نفس المرأة التي صاحبها يومًا! مططت شفتي في ضيق بعد أن أيقنت بأني لم أعد أهتم كثيرًا بردة فعله بعد آخر لقاء بيننا..

«وصلنا يا قمر»..

خاطبتني بدلال ظاهر، وربما بتدليل زائد أيضًا.. كانت تعرف أنها أكبر مني سنًا، لكن ثقتها بنفسها كانت أكبر.. كانت موقنة بأن شكلها لا يوحي بحقيقة عمرها على الإطلاق..

وقفتُ على مدخل شقتها لوهلة مترددًا، لكني سرعان ما دخلت بعد أن سحبتني من ذراعي.. بهرني المنظر عند دخولي الشقة أول مرة.. الأثاث الفاخر والديكورات الأنيقة، التحف والأنتيكات المنتقاة بعناية فائقة.. كل شيء في الشقة يدل على ذوق رفيع، وبذخ شديد.. كانت «دُنيا» تسحبني من ذراعي كأنها تُعرّفني إلى عالمي الجديد، وفي مدة قصيرة شاهدت كل ركن من أركان الشقة.. لكن أشد ما بهرني كان غرفة النوم، كانت مؤثثة على طراز شرقي قديم أيقظ بداخلي كل أحلام وخيالات ألف ليلة وليلة..

تبعتها كالمسحور حتى أوصلتني لشرفة فسيحة، لها إطلالة أخاذة على نيل المعادي.. وقفت ذاهلاً مشدوهًا من جمال المنظر، والقمر يرسل ضوءه الفضي على صفحة الماء.. سمعت صوتها يقول في حنان:

ـ ما رأيك؟

ـ شقتك جميلة.

أحسست بها تقترب مني حتى كادت تلتصق بجسدي من الخلف، ثم قالت وكأنها تتعجب من انبهاري بروعة المنظر:

ـ أأنت خيالي؟

ـ لا أملك سواه، أنسيت أني كاتب؟!

صمتت ولم تعقب، أخذت تراقب معي القمر الناعس وتتابع أشعته.. بعد فترة شعرت بها تغادر الشرفة، وسمعتها تقول من داخل الشقة:

ـ سآخذ دشًا سريعًا.

أكملت وقفتي في الشرفة حتى طالت غيبتها؛ فدخلت باحثًا عنها.. سمعت صوت انهمار الماء من خلف باب الحمام؛ فقلت محاولاً ملاطفتها:

ـ ماذا تفعلين بالماء؟!

رنت ضحكتها عالية ثم أجابت بخلاعة:

ـ أنت قليل الأدب.

لحظات ثم خرجت من الحمام، تلف جسدها ببشكير وردي اللون، بهرني بياض جلدها.. لكني انتبهت حين هرولت لغرفة النوم، ثم ردت الباب وراءها.. وقفت لثوان مترددًا ثم حزمت أمري، وطرقت الباب مرتين.. لم أجد إجابة منها؛ ففتحته ببطء وفضول.. كانت ممددة فوق الفراش، تلمع في عينيها نظرات أشعلت في جوفي رغبة، وددتُ لو أخمدت نارها سريعًا.. تسمرتُ في مكاني حين قامت واقفة، تحركت نحوي في دلال قهار.. التصقت بي، كان جسدها دافئًا للغاية.. تعلقت في رقبتي بذراعيها؛ فشممت رائحة الصابون الزكية.. تمسحت بخدها على وجهي؛ فتنسمت شذا عبير بشرتها.. خرج صوتها المبحوح هامسًا، لكنه نقل إليّ سخونة كانت منبعثة من أعماقها:

ـ أنا في حاجة إلى قبلة؟

لم أتحرك، وبدا كأنما أصابني جمالها القاهر بالشلل.. ابتسمت هي في دلال، وواصلت الهمس:

ـ أأنت من الذين يضربون النساء؟

ابتلعت ريقي بصعوبة ثم أجبت بصوت خرج خافتًا رغمًا عني:

ـ ولا الرجال.

لمعت عيناها بقوة واتسعت ابتسامتها.. همست مجددًا حين سحبتني بلطف للفراش:

ـ هذا شيء جيد.

جذبتني فوقها فهفوت إليها، وتحرر جسدها الفاتن من قيد البشكير الوردي.. قبلتني قبلة طويلة؛ فغبت عن العالم تمامًا.. فتحت عيني فلم أر سوى شفتيها مضمومتين، فقبلتهما من جديد.. لم أدر بشيء بعدها، ولم أسمع سوى صوتها يكاد يلسع أذني حين أسبلت عينيها وهمست في غنج:

ـ معتز، هيا.

* * *

في ماضٍ غير بعيد كانت «داليا» معتادة على القدوم لهذا المطعم برفقة «معتز»، كان «كورتيجيانو» مكانهما المفضل.. هنا حيث اتفقا على الزواج، كان المكان دافئًا وراقيًا وجذابًا.. جلست على الطاولة التي اعتادا الجلوس إليها، تخيلته جالسًا على المقعد المقابل لها.. كان المكان حميميًا، متناقضًا مع الجلبة والضوضاء اللتين تصدران من شارع ميشيل باخوم خارجه.. تنبعث في أرجائه موسيقى هادئة، بثت في جسدها راحة واسترخاء كانت في أمسّ الحاجة لهما.. ألقت نظرة سريعة على قائمة الطعام والجوع يمزق معدتها، إلى الدرجة التي جعلتها تكاد تسمع صوت قرقرة بطنها.. طلبت طبق الدجاج المشوي والخضار السوتيه، تمامًا كما كانت تفعل حين كانت معه.. شعرت كأنها استعادت جزءًا

ولو بسيطًا من نفسها.. أغلقت عينيها، وسمحت للموسيقى الرائقة أن تهدهد روحها.. حاولت أن تعيد خلاياها العصبية المتوترة إلى طبيعتها، أن تعيد عقارب الساعة إلى نقطة الصفر كما كانت أمها تخبرها دومًا..

لكن صوت صراخ أمها علا في عقلها، وأعادها صداه لدوامات الذكريات القاسية.. فانمحت من ذهنها كل الأحداث السعيدة، وطفت فوق السطح تلك الذكرى التي ودت لو أنها لم تحدث أبدًا..

ـ طالما أخبرتك أن هذا الولد لا يصلح لك.

ـ يا ماما أنا أحبه.

ـ ماذا يفيد الحب في هذه الأيام؟!

ـ هو أيضا يحبني.

ـ حقًا؟! أين هو إذن من هذه المصيبة؟

ـ معتز عرض عليّ الزواج.

ـ زواج! هل سيصرف عليك من مصروف أبيه؟ إنه طالب فاشل ومستهتر، ولولا أنه يعلم أننا وحيدتان في هذه الحياة لما...

ـ ماما من فضلك، معتز شاب محترم.. لم يفعل شيئًا رغمًا عني.

تحسست بكفها خدها الأيسر، وتذكرت صفعة أمها القوية.. ابتسمت حين تذكرت غضبها الطفولي آنذاك، وهرولتها لغرفتها.. امتناعها عن تناول الطعام، ورفضها محاولات أمها لاسترضائها بكل الطرق.. و«معتز» يأتي كل يوم للقاء أمها، يحاول إقناعها.. يترجاها للموافقة على زواجه

بـ«داليا»، لكن أمها كانت قوية عنيدة لا تلين وترفض في إصرار.. شددت من حصارها الصارم حول ابنتها، وقطعت خط الهاتف عن الشقة.. حتى كان اليوم الذي دخلت فيه أمها عليها، ووجهها يحمل كل آيات الشفقة.. احتضنتها بقوة، وأخبرتها أنها اتفقت مع طبيب في منطقة الهرم لإجهاض الحمل.. يتردد اسمه كثيرًا في أوساط المطلقات كمتخصص في عمليات الإجهاض.. أحست «داليا» لحظتها أنها لا تريد أن ترفع رأسها عن صدر أمها، تريد أن تختبئ فيه.. تريد أن تهدأ، تستريح وتهرب..

بعد يومين دخلت «داليا» العيادة بدماء هاربة، كل ما في داخلها يرتجف.. استقبلتها وأمها ممرضة ضخمة بصورة لافتة، عبست في وجههما ثم رمتهما بنظرات وقحة وأشارت لهما بالجلوس على مقاعد الانتظار.. هكذا دون كلمة واحدة، كأنها أصدرت حكمًا مسبقًا قاطعًا بإدانتهما.. تركتهما طويلاً مع أنه لم يكن في العيادة غيرهما.. دقات الساعة العتيقة كانت كضربات موجعة لمطرقة فوق رأس «داليا»..

كل فترة كانت «داليا» تختلس النظر نحو الممرضة العابسة؛ فتجدها ترميها بنظرة احتقار.. تشاغلت عنها بتأمل العيادة، التي كان جوها العام كئيبًا مقبضًا رغم صور الأطفال الكثيرة التي تزين الحوائط.. لكن الطلاء الرمادي الكالح والإضاءة النيون الباهتة، والأثاث المتهالك وهذه الممرضة البغيضة كان لها أثر كبير في نشر الكآبة على المكان..

بعد فترة رن جرس متقطع؛ فهرعت الممرضة نحو غرفة الطبيب.. لحظات ثم خرجت من الغرفة، وسيدة تستند على ذراعها.. كان وجه السيدة شاحبًا، بل كان باهتا.. ربما كان لونه مصفرًا.. عيناها مطفئتان

جامدتان كأنهما ميتتان.. شفتاها جافتان، يتحرك لسانها فوقهما كأنه بندول الساعة، وكل جسدها يرتعش.. ألقت بها الممرضة دون اكتراث فوق أقرب مقعد، كأنها تلقي بنفاية ثم عادت لغرفة الطبيب..

اجتاح الذعر «داليا» وحاولت أن تغادر، لكن أمها أمسكت بذراعها في قوة.. اختلست النظر نحو السيدة الصفراء لوهلة، ثم تحولت نظراتها إلى تحديق.. كأن قوة خفية أو مغناطيسًا يجذبها نحو هذه السيدة.. كأنها تنظر لنفسها في المرآة، نصف حية ونصف ميتة..

انتبهت على باب غرفة الطبيب يفتح، والممرضة تخرج منه ترميها بذات النظرات الوقحة.. ودون أي كلمة تشير بيدها نحو الداخل.. سرت في جسدها قشعريرة الموت، انتابها إحساس كأنها ذاهبة للذبح.. شعرت بأن قدميها ثقيلتان، دوار مخيف أحاط بعقلها.. جذبتها أمها من يدها، وربتت بكفها على كتفها.. تبعتها مسلوبة الإرادة، تحاول أن تستند عليها.. كانت ركبتاها لا تتحملانها، معدتها تكاد تفور..

واستقبلهما الطبيب بابتسامة سمجة، وهو يتفحصهما بعينيه الضيقتين.. نظراته كانت أشد وقاحة من نظرات ممرضته.. رجل خمسيني ناعم، كل شيء فيه لزج.. أشار لهما بالجلوس وهو يتفحص فيهما بنظراته الفاضحة، كأنه كان يفاضل بأيهما يبدأ..

بدأت أمها الحديث، أخبرته أنها متزوجة ولكن زوجها لا يرغب في الإنجاب الآن.. اختلقت له أكاذيب كثيرة، وهو لا يكترث بما تقول.. كأنه سمع الكثير من تلك الحكايات، وأصبح يعلم بخبرته أنها كلها كاذبة.. فقط كانت نظراته السمجة تخترق ثيابهما.. لحظات قليلة ثم

أشار بيده نحو سرير الكشف.. سحبتها أمها نحوه، وسمعت «داليا» من جديد صوت أزيز ذلك الجرس البغيض.. لحظات وكانت الممرضة فوق رأسها، تنزع الثياب عن جسدها بقسوة كأنها تعاقبها.. وعيناها تفتشان في كل شبر من لحمها..

تقدم الطبيب للكشف عليها.. حاولت أمها البقاء لكن الممرضة جذبتها من ذراعها بعيدًا.. وأخذ الطبيب يعبث بجسدها، يكشف عليها في وقاحة، كان يتلذذ بلمسها.. وبعد أن انتهى من سماجته، تركها وهي تشعر بالإهانة من عبثه بكل مقدسات جسدها.. سمعته يخبر أمها بالحضور مساء الغد لإنهاء الأمر..

خرجت من عيادته كالخروف الذي نجا صدفة من سكين الذبح.. قضت ليلتها والنهار التالي في ذعر وتردد.. تقرر في دقيقة ألا تذهب للطبيب، وفي الدقيقة التالية تعدل عن رأيها.. فكرت أن تتوسل لأمها أن تعفيها من الذبح، لكنها عدلت عن هذه الفكرة بعد أن أيقنت بعدم جدواها.. تحدثت إلى «معتز» في الهاتف بعد أن خففت أمها الحصار من حولها.. حدثته بدموعها لعله يجد حلاً، ليقوي قلبها ويشد من أزرها.. حدثها طويلاً، كان رقيقًا حنونًا.. وأيضا كان كالمجنون، يضحك أحيانا ثم تسمع صوت بكائه العاجز أحيانا أخرى.. طلب منها أن يكون إلى جوارها غدًا، لكنها رفضت بإصرار..

أخذتها أمها في الموعد المحدد إلى العيادة المقبضة، مرة أخرى كانت دماؤها هاربة.. على مقعد الانتظار بكت بحرقة، ولكن في صمت، فهذا الذي ستقتله الآن هو طفلها.. طفل الرجل الوحيد الذي تمنته، وحلمت معه بحياة هانئة.. ومع هذا فها هي مقدمة على قتله..

قبل أن تدخل لغرفة الطبيب اختلست النظر إلى وجهها المنعكسة صورته على زجاج إحدى النوافذ.. صعقت حين علمت أنها يمكن أن تكون صفراء إلى هذا الحد.. وعندما أعطاها الطبيب حقنة المخدر والتقت نظراتهما، أحست بأنه يرغب في الاعتداء عليها.. تملكها شعور بالذعر والفزع؛ فحاولت أن تصرخ مستغيثة.. لكن لسانها كان ثقيلاً، لم يتحرك.. صرخ كل كيانها ينادي بأعلى صوت داخلها باسم «معتز».. لم تعلم «داليا» هل صرخت في الحقيقة أم لا، كل ما تعرفه أنها غابت عن الوعي ولم تعد تدري ما يحدث لها..

وحين أفاقت وجدت نفسها ممدة على سرير في نفس غرفة الطبيب، وألم حاد يكاد يمزق بطنها.. لحظات وأتت الممرضة المخيفة، أخذت تلبسها ثيابها في قرف.. أنهضتها من فوق السرير بغلظة، ثم سحبتها وألقت بها فوق أقرب مقعد في غرفة الانتظار.. نفس المقعد الذي ألقت بالسيدة الصفراء فوقه.. في هذه اللحظة فقط أحست «داليا» بفداحة غلطتها، شعرت بأنها فقدت آدميتها وتحولت إلى قمامة يتخلص منها الناس بمنتهى القرف..

بقيت فوق المقعد لفترة لم تعلم عدتها، وحين بدأ الألم يذهب عنها تمكنت من الوقوف.. استطاعت بمساعدة أمها أن تغادر مقعد القمامة.. كانت هزيلة، شاحبة وضعيفة.. كل شيء ضبابي أمام عينيها.. استندت على أمها بكل كيانها حتى تمكنت من مغادرة العيادة الكئيبة.. وما كادت تصل إلى الشارع حتى وجدت «معتز» منتظرًا أمام مدخل العمارة.. خيل إليها أنها تحلم أو تهذي من أثر المخدر.. فاهتزت رموشها بحدة لتزيح من أمام نظرها ذلك الضباب اللعين.. لكنه كان «معتز» بالفعل، رمقته

أمها طويلاً ثم ربتت على كتفها.. وحين حاول الاقتراب منها، أوقفته أمها بإشارة صارمة.. ثم أركبتها السيارة، وانطلق بهما السائق للبيت..

تنفست «داليا» بقوة حين خرجت من بئر ذكرياتها العميقة، انتبهت إلى أن الطعام قد برد أمامها.. كانت شهيتها قد فترت، ولم تعد راغبة في أي طعام.. أشارت للنادل بأن يجهز لها الحساب، وصوت أمها يرن في عقلها حين قالت لها في السيارة:

«سأعيد بكارتك كما كانت، وسأزوجك بمن هو أفضل منه»..

* * *

(٨)

تزوجتها بعد أن توطدت علاقتنا، وأصبحت لا أطيق البعد عنها.. واكتشفت معها أن الجنس هو القادر على تغيير حياة البشر، اختبرنا معًا قواعد جديدة للجاذبية، ليست كتلك التي درسناها في الفيزياء.. بل نوع آخر، ندور فيه بلا نهاية حول مركزنا حين نلتحم في تناغم أسطوري.. ثم نهدأ وأنفاسنا لاهثة حين نتراخى فوق الفراش وقت الانفصال.. وحينما كانت تعترضني نوة أو عاصفة عاتية كنت ألوذ بدفء جسدها، طلبًا للحماية من الفشل والحزن.. كانت كالشمس أرتقي سماواتها متبتلاً لأستقر في مركزها، ثم أغرق راضيًا في دفقات ضوئها الباهر.. انجرفت معها إلى أعماق مجتمعنا، واختلت موازين قلمي بتفجرات مزلزلة.. تحسنت أحوالي كثيرًا، واختلفت كتاباتي بعد أن تركت ما كنت أخدع نفسي به من قضايا وجودية لا أساس لها.. أصبحت أكتب ما يريده الناس، مجرد هراء، وكان ذلك يسيرًا في حقيقة الأمر.. مع الوقت صرت أستعذب كتاباتي الجديدة، تمامًا كما استعذبت حياتي مع جسد «دُنيا»..

«آه يا دُنيا.. ما أجمل ثمرتي صدرك، تشهدان للكون بالذوق الرفيع»..

تمتمت وأنا أستكمل ذكريات حياتي معها.. انفتحت أمامي كل أبواب النجاح والشهرة، أصبحت كتاباتي هي الأغلي ثمنًا بين كل أقراني من الكتّاب.. واعتزلت هي الرقص، اهتمت بالبقاء إلى جواري في المنزل تهيئ أجواءه لتكون مناسبة للكتابة.. دائمًا ما كنت أجده في صورة رائعة، و«دُنيا» تطالعني بوجه يتألق بالسعادة.. كنا نفضل المكوث في غرفة النوم حيث نتحرر من كل القيود والأعراف.. وحين يشرع السأم في فرد أجنحته علينا نأخذ سيارتها في رحلة بغير هدى إلى أطراف القاهرة النائية، نطالع شمسها حين تبسط أذرعها على السماء وقت الشروق.. أو نسافر إلى مدينة العين السخنة حيث الشاليه الذي ابتعته خصوصًا؛ ليساعدني هدوؤه على الكتابة.. سيطرت على عقلي تلك الأوقات الهانئة التي قضيتها معها في هذا الشاليه..

ـ لم نهنأ ببعضنا هكذا من قبل!

قالتها «دُنيا» ثم انطرحت على كوعيها، تسند ذقنها فوق راحتيها.. مبرزة فتنة ظهرها المفرود، وجمال خصرها الدقيق واستداراتها الساحرة.. ذراعاها كالمرمر، ساقاها كالرخام تحركهما في دلال طفولي للأمام والخلف.. اضطجعتُ على الفراش بجوارها وقلت هامسًا:

ـ أنا مدين لك بالكثير.

وضعت كفها على شفتي لمنعي من إكمال الحديث، ثم وضعت رأسها على صدري وأخذت تتمسح فيه بوجهها كالقطة.. تأملتها قليلاً ثم قلت:

ـ هل فكرت يومًا في الغد؟

صمتت لفترة ثم قالت:

ـ لا.. لا أفكر إلا في الحب.

ـ الحب!

ـ نعم.. فلولاه لكان لحياتي شأن آخر..

كان في صوتها شيء من الحزن؛ فحاولت تغيير مجرى الحديث وتساءلت في مرح مصطنع:

ـ أخبريني من أي شيء صُنع هذا الجمال القهار؟!

ـ الألم يا حبيبي هو ما صنعني.

ـ الألم؟!

ـ نعم؛ فبعد أن تركت بيت أهلي لم أجد رفيقًا سواه.. حاولت التمثيل لكني فشلت، أخبروني أني بلا موهبة.. لكن اللوتس كان هو المكان الوحيد الذي انتشلني من لعنة الفشل.

صمتت قليلاً ثم قالت:

ـ أسوأ شيء أن تكتب ولا تجد من يقرأُك، أن يعلو صوتك بالصراخ ولا تجد من يسمعك.. صدقني الفشل لعنة، يمكننا أن نخفيها بعض الوقت.. لكنها أبدًا لا تموت.

رمتني بنظرة حانية ثم استطردت متسائلة:

ـ لماذا لم تسألني عن الماضي؟

فهمتُ مغزى سؤالها لكني تجاهلته، وحاولتُ تغيير مجرى الحديث فقلت:

ـ النشوة يا حبيبتي حين تحل بركتها يملأ اليقين نفوسنا؛ فلا نرغب في معرفة ما سواه.

لكن بدا على ملامحها أنها كانت مصرة على البوح أكثر؛ فاستطردت:

ـ كان أبي عاملاً بسيطًا في المنصورة، مثل كثير من البسطاء.. لكنه كان ذا شخصية قوية من الصعب على من يقابلها أن ينساها، رجل حقيقي.. أتعلم أن في ملامحك وروحك شيئًا منه؟ ربما يكون هذا ما جذبني إليك من أول لقاء.. شجعني بكل ما في وسعه على استكمال الدراسة، كان على ثقة بأن التعليم سيكون أفضل وسيلة لتأمين مستقبلي.. لكني كنت أبحث عن شيء آخر.

ـ لا داعي للحديث إن كان يزعجك.

كانت نظرتها شاردة، وبدا عليها أنها لم تسمع ما قلت.. وأكملت بوحها:

ـ كنت أحب الرقص والتمثيل بشدة، وأمي كانت تشجعني على ذلك.. ربما لو بقيَت على قيد الحياة لكانت ساندتني، لكنه القدر.. بعد وفاتها تغيرت حال أبي، أصبح عصبيًا متزمتًا.. يخشى عليّ من أي شيء، أصبحت غير قادرة على مغادرة المنزل إلا برفقة أخي الأصغر.. الذي كان لا يختلف عن أبي في شيء.. ثم تزوج أبي بخالتي، ومع هذا الزواج تحولت حياتي إلى جحيم حقيقية.

أمسكتُ بكفها حين شعرت بنبرة الأسى في صوتها، لكنها أكملت:

ـ لم يكن أمامي سوى الهرب، ربما لو عاد بي الزمان لكنت اخترت طريقًا آخر.. لكن من المؤكد أني كنت سأهرب؛ فحياتي بعد رحيل أمي وزواج أبي لم يعد لها معنى أو طعم.. وأتيت إلى القاهرة.

ـ وماذا فعلت؟! أعني كيف عشت وحدك؟!

ارتسمت على وجهها ابتسامة حزينة قبل أن تقول في سخرية مريرة:

ـ ليس صعبًا على من تملك هذا الجمال القهار أن تتكسب منه.

ربتُّ على كفها مواسيًا، لكنها رفعت وجهها ونظرت مباشرة في عيني ثم قالت:

ـ ولكنك أنت حبي الوحيد، أنت أبي وحبيبي وابني.

داعبتُ بكفي ظهرها العاري، وقبلت رأسها.. فأمسكت وجهي براحتيها ثم طبعت قبلة طويلة على شفتي.. همستُ وقد أحرقتني نار الرغبة:

ـ هل أنت جاهزة لجولة جديدة.

رنت ضحكتها عاليًا حين أجابت بغنج:

ـ لا تكن همجيًا.

«اللعنة على الأيام لا تمضي إلا إلى الوراء، حتى وإن كانت جميلة فإنها لا يبقى منها إلا مجرد ذكرى باهتة»..

غمغمتُ في أسى بعد أن أفقت من نوبة الذكريات؛ فما زالت رنة

ضحكتها تتردد في عقلي إلى الآن.. لعل أكثر ما كان يؤلمني أنني رغم تعلقي الشديد بها لم أتمكن أبدًا من نسيان «داليا».. رغم محاولات «دُنيا» الدؤوب لمحو ذكراها من قلبي، فشلت.. كنت أنا من فشل في واقع الأمر، لم أستطع محو ذلك الألم الذي يعتريني كلما تذكرت ما تسببت فيه لها من عذاب وأسى.. ما زالت صورتها محفورة في عقلي حين رأيتها خارجة تتسند على ذراع أمها من عيادة الهرم.. كانت شبه ميتة، نظراتها نحوي كانت تحمل معاني قاسية.. ربما كانت تحمّلني ذنب ما أصابها، وربما كانت تلومني أو تعاتبني.. أحيانا كنت أفسر نظراتها بأنها كانت تطلب مني العون.. ربما كانت نظراتها تلك هي السبب في تحول مجريات حياتي، التي بدأتها بمواجهة أبي في تلك الليلة المشؤومة..

فبعد أن شاهدتها تركب سيارتها برفقة أمها سرت هائمًا في الشوارع لفترة حتى أعيا الألم ساقيّ.. وأخيرا قادتني قدماي إلى منزلنا أتجرع مرارة العجز وذل القهر، كنت أرغب فقط في الراحة.. لا شيء سوى النوم والنسيان، لكن القدر كان مصرًا على الاستمرار في جلدي بسوط العذاب.. سمعت صوت أمي يصرخ مستنجدًا من داخل الشقة؛ ففتحت بابها بسرعة.. رأيته واقفًا بكل جبروته وقسوته، يذيقها من صنوف الضرب والإهانة.. التفت نحوي باستهانة واضحة حين سمع صوت الباب يفتح، ثم استدار نحوها بلا مبالاة كأنه لم ير أحدًا وأكمل ما كان يفعله..

تسمرت في مكاني لفترة وانفعال غاشم يعتمل في صدري، كأن كل شياطين الجحيم قد تجمعوا حولي.. وفجأة تحول هذا الانفعال إلى موجة عاتية من الغضب، عاصفة لم أشعر بها من قبل.. لم أشعر بشيء

وقتها، أظلمت الرؤية أمام عيني تمامًا.. فقط تذكرت ذلك المشهد البائس حين كنت صغيرًا، أشاهده من أسفل سريره وهو يضربها..

اندفعت نحوه بكل ما أوتيت من قوة، جذبته من ظهره بكل عنف ثم دفعته بقسوة بعيدًا عنها.. ألجمته مباغتتي له فارتطم بذلك المقعد الضخم، حين حاول استعادة توزانه تعثر في منضدة الصالون الخشبية وانكفأ على وجهه.. بقيت متحفزًا وأنفاسي تكاد تتوقف من شدة انفعالي، وأنا أتوقع أن يقوم من عثرته ليفتك بي.. لكن دهشتي كانت بالغة حين بقي على حاله، منكفئًا على وجهه لا يتحرك.. نظرت نحو أمي المسكينة أسألها العون، لكنها كانت منخرطة في نوبة مريرة من البكاء..

بعد فترة قام واقفًا بصعوبة، يستند بكف مرتعشة على مسند المقعد الضخم.. ثم مشى بخطوات مترنحة نحو غرفة النوم، ولم يغلق بابها خلفه.. اقتربت بهدوء من باب الغرفة، وليتني لم أفعل.. فما سمعته فطر قلبي للأبد، كاد يخرجه من بين ضلوعي.. سمعته يبكي بحرقة، نعم أبي الجبار كان ينشج كالنساء.. في هذه اللحظة سألت الله أن يأخذني، أو أن يجعلني أصمَّ فلا أسمع المزيد..

ما زاد من ألمي أني رأيت أمي تتحرك مستسلمة بخطى بائسة نحو غرفة النوم، تبعتها بنظراتي حتى وجدتها تجلس إلى جواره وتضع رأسه على كتفها وتمسح على شعره بحنان.. تراجعت مبتعدًا عنهما وقدماي لا تقويان على حملي، ألقيت بجسدي فوق أريكة الصالون..

لحظات ورأيته يغادر غرفة النوم بنفس خطواته المترنحة، حين مر أمامي لم ينظر نحوي ولو حتى نظرة عابرة.. كان رأسه متدليًا وكتفاه

العريضتان متهدلتين، وعيناه منتفختين من البكاء ونظراته زائغة.. تحرك نحو باب الشقة بكل هدوء، فتحه ثم غادر..

كانت هذه آخر مرة أراه فيها على قيد الحياة؛ فبعد عدة أشهر من زواجي أخبرنا بعض الأصدقاء أنهم وجدوه ميتًا.. مات وحيدًا في شقته التي كان يستأجرها، يستخدمها مقرًا لممارسة غزواته وفتوحاته..

«رحمك الله يا أبي، كنت أود أن تسامحني قبل رحيلك..»

* * *

حين عادت «داليا» لمنزلها سيطر عليها إحساس غريب، أحست أنها لم تعد كما كانت من قبل.. شعور بالغربة أحكم قيده على روحها؛ فكل شيء في المنزل مختلف لا تعرفه.. الأثاث الذي كانت تحفظ تفاصيله، حتى غرفتها لم تعد تشعر نحوها بأي ألفة.. وحين رقدت على فراشها بدأ عقلها يسترجع كل لحظة مرت بها، كل حركة وكل لفتة صغيرة، مدت يدها المرتعشة في وهن نحو الهاتف ثم طلبت رقمه.. جاءها صوت «معتز» على الطرف الآخر ينطق باسمها في لهفة، لم ترد عليه.. واكتفت بالاستماع لصوته، وابتسامة باهتة حزينة ثم أغلقت الخط.. لم ترد بعدها على الهاتف الذي لم يتوقف جرسه طوال الليل، كما لم تتوقف دموع القهر من الانهيار على خديها.. لم تتمكن من نسيانه، لكنها كانت كأنها تعاقب نفسها على ما اقترفته..

تغيرت أمها كثيرًا بعد ما حدث، أنهت كل علاقاتها الحميمة، وأصبحت لا تغادر المنزل إلا لضرورة.. رأتها «داليا» تصلي، ربما للمرة الأولى منذ زمن بعيد، وشعرت بمحاولاتها المستمرة للتقرب إليها وتدليلها طوال

الوقت.. ورغم هذا التغيير الكبير الذي طرأ عليها، بقيت قوية صلبة لا تخلف وعدًا قطعته على نفسها.. استمرت حياتها على نفس الوتيرة، وكما تغيرت الأم أبدت «داليا» اهتماما مفاجئًا بدراستها.. كانت الأم طوال هذه الفترة تلح عليها بالزواج لعله يمحي أثر التجربة الأليمة، لكن حرص «داليا» على التفوق كان يحول بين تحقق رغبة أمها.. تخرجت بتقدير جيد جدًا، تم تعيينها معيدة في هيئة التدريس، وتمكنت من الحصول على درجة الدكتوراه..

سرعان ما عادت أمها للسعي وراء تحقيق أملها القديم.. رضخت «داليا» في النهاية وتزوجت، بعد أشهر قليلة من حصولها على الدكتوراه، بالمهندس «وليد» ابن واحدة من صديقات أمها.. شاب من عائلة متوسطة، يعمل في مجال المقاولات بالكويت.. كانت كل المعلومات التي جمعتها عنه تبشر بأنه ينتظره مستقبل واعد..

أصرت أمها على إقامة فرح كبير، لم تهتم بتكلفته المالية المرتفعة.. كان جل همها أن يعلم الجميع أن ابنتها ستتزوج اليوم، ولكن «داليا» كان لها رأي آخر.. فمنذ أن ركبت السيارة بجوار «وليد» في طريقهما إلى الفندق، وعقلها لا يوجد به سوى «معتز».. لا تفكر إلا في كيفية لقائه، متى وأين سيكون هذا اللقاء؟!

وحين رقدت على فراش الفندق الفخم كان عقلها لا يزال لاهثًا وراء «معتز».. لا تحس بهذا الرجل الغريب الراقد بجوارها، لا تشعر برغباته، ولا بما يحاول فعله.. لم تكن خائفة، ولا مترقبة، فقط كان جسدها رافضًا ونفسها متقززة.. كل ما لفت انتباهها هو رائحة الجمبري النفاذة، التي كانت تفوح من فمه.. كان المسكين يبذل أقصى طاقته، وحين لم ينجح

ظن أنها ما زالت ساذجة صغيرة.. وأخيرا أصابه اليأس؛ فنام.. تركها تفكر في هدوء، تشعر بالحرية للمرة الأولى منذ أُغلق عليهما باب واحد..

رغم الهدوء الذي كان مخيمًا على أجواء الغرفة، كانت «داليا» تتصارع داخلها مشاعر عاصفة.. كانت ثائرة وغاضبة من «معتز»، تشعر أنه رماها، تركها تتزوج بهذا الرجل الغريب الذي لا تعرفه.. جرح غائر أصاب كرامتها بشدة، كان ألمه فظيعًا.. وبعد وقت قصير تعود مرة أخرى، تندفع بقلبها نحوه، تلتمس له الأعذار المختلفة.. تحدث نفسها بأنه لم يخدعها، ولم يجبرها على شيء أبدًا.. لم يتخل عنها؛ فهي تعلم ظروفه جيدًا.. ومن يدري؛ فلعلها تتمكن من الزواج به في المستقبل.. ثم يعادوها الألم مجددًا؛ فلا ترى أمامها سوى رغبة جارفة في الانتقام.. تخيلَتْه راكعًا أسفل قدميها، يترجاها أن تعود له، شاهدته ذليلاً كما هي حالها الآن..

لم تكن «داليا» أول فتاة تتزوج رجلاً لا تحبه، لكن اعتيادها «معتز» كان هو سبب تعاستها الحقيقي.. كانت لا تتخيل حياتها بعيدًا عنه، لا تتصور رجلاً غيره يشاركها الفراش.. حين كان «وليد» ينام بجوارها كانت تفسح مكانًا بينهما، يرقد فيه طيف «معتز».. وحين كان يقترب من خدها، كانت تشعر بأنفاس «معتز» تكاد تلسع وجهها.. ربما كانت تستطيع يوم أن تزوجت أن تنسى حبها لـ«معتز»، أن تتحرر من أغلال تعودها عليه، لكنها أبدًا لم تحاول.. ولا للحظة واحدة حاولت أن تنساه، كان أكثر ما يشغل عقلها في تلك الأيام تساؤلاً يلح عليها دومًا.. هل كانت ستعتاد زوجها لو لم يكن «معتز» في حياتها؟!

انتهى شهر العسل سريعًا، و«وليد» لم يتمكن من ممارسة حقوقه..

لكنه كان للحق مهذبًا للغاية، لم يحاول الضغط عليها ولو لمرة واحدة.. حتى عندما سمع عتاب أمها لها تدخل محاولاً تلطيف الأجواء، أخبر أمها أن كل شيء سيكون جيدًا مع مرور الوقت..

سافرت برفقته إلى الكويت، مكان عمله.. كانت حياتها هناك رتيبة، مملة لا جديد فيها.. «وليد» يعمل فترتين، صباحية ومسائية.. يحضر للبيت بينهما، يرغب في قدر من الطعام وقليل من النوم.. وفي المساء يحاول أن يجعلها تلين معه، لكن جسدها كان رافضًا باستماتة.. لم تكن تشعر أن هذا البيت بيتها، ولا أن هذا الرجل رجلها.. لم يطل صبره كثيرًا؛ فبعد شهرين من وصولهما اتصل بأمها في مصر يشكو لها دلع ابنتها كما سمعته يقول.. حدثتها أمها طويلاً في هذه الليلة، وترجتها أن تمنحه ما يطلب.. أخبرتها أنها كبرت، ولم تعد تتحمل المزيد من المشكلات.. في نهاية المكالمة أخبرتها أنها تدعو لها في كل صلاة، ثم طلبت منها أن تسامحها..

تأثرت «داليا» كثيرًا بحديث أمها، وقررت أخيرا أن تستجيب.. تزينت كأنها تتزين للقاء «معتز»، وتركت «وليد» يحترق خارج غرفة النوم لأكثر من ساعة.. حين انتهت وفتحت باب الغرفة قليلاً، اندفع «وليد» نحوها يحمله شوقه وتوقه لإثبات رجولته.. اقترب منها وهو يلف ذراعيه حولها، وأسنانه تلمع من بين شفتيه.. و«داليا» لا تفكر في إرضائه على الإطلاق، كانت فقط تفكر في أمها وإرضاء «معتز»! ظن المسكين أنها ما زالت خجولاً؛ فمسح بكفه على شعرها وطبع قبلة حانية فوق جبينها.. ضمها إلى صدره وأخذ يقول كلامًا معسولاً، مجرد كلام لم يساعدها في شيء.. حتى يئست من محاولة التهرب منه؛

فاستسلمت.. أخذ يحاول استثارتها بكل السبل، لكن محاولاته كانت بالنسبة لها فاشلة مقززة.. لم يستطع أن يفعل بجسدها ما كان «معتز» يفعله، لم يتمكن من غزوها واكتشافها.. تحولت «داليا» بين يديه إلى لوح من الثلج، تشرد حينًا وتتقزز حينًا آخر.. وحينما كانت تراه أو تنتبه لوجوده، تذكرها محاولاته بذلك النسناس الذي ما زالت تذكره من زيارتها الوحيدة لحديقة الحيوان.. نسناس يتحرك فوقها في حيوانية وشهوانية..

سريعًا تركها وأنفاسه لاهثة، والعرق يتفصد عن جبينه، تلمع عيناه بنظرة انتصار وزهو.. و«داليا» كانت متعبة، تحس بالذل، وتشعر أنها رخيصة.. معدتها تتلوى، وقلبها مقبوض، ألم فظيع يسري في كل جسدها.. كانت للمرة الأولى تشعر بأنها خائنة، خانت إخلاصها لرجلها الوحيد «معتز»..

امتدت الأيام أمامها طويلة، رتيبة فارغة.. ومع رتابتها أصبحت لا تبالي بشيء، واعتادت إيقاع محاولات زوجها الشهوانية.. ولكنها لم تعتد ذلك التقزز الذي يلازمها كلما لمس جسدها.. فقط أصبحت لا تبالي بما يفعله، بل أصبحت أفعاله مجرد وسيلة لتسليتها وسط كل هذا السأم والضجر المسيطرين على حياتها.. كانت تشعر أنه يجلدها، يعذبها ويعاقبها على خيانتها لـ«معتز».. في كثير من الأوقات وحين يشتد بها الزهق كانت تطلبه، قبل انتهاء فترة عمله الصباحية.. تخبره في دلال مصطنع بأنها تحتاجه الآن؛ فيرضخ المسكين لرغبتها.. وتبادر هي بخلع كل ملابسها، ثم ترقد على الفراش وتستر جسدها بملاءة خفيفة.. تنتظره وفي عينيها نظرة خبيثة، ثم تتسلى برؤية جحوظ عينيه

حين يكشف ببطء الملاءة عن جسدها.. أنفاسه تتقطع، وهو يتحسس مفاتنها.. كانت حركاته حين يحاول أخذها تضحكها، تسليها، تذكرها بذلك النسناس.. أصبح زوجها مجرد تسلية، تعينها على تحمل ذلك السأم الذي سيطر على حياتها..

ولكن إحساسها باللامبالاة كان ستارًا زائفًا يخبئ من خلفه الحزن، والضياع والتفكك الذي تشعر به داخل نفسها.. كان هذا الستار ينزاح أحيانا، لترى من ورائه العذاب فتبكي.. كانت تبكي كثيرًا حين تكون وحدها، ولم يكن لديها أكثر من وقت اختلائها بنفسها..

حين علمت بحملها لم تدر كيف تشعر، أتفرح أم تحزن.. ربما كان سبب هذا التضارب في مشاعرها أن هذا الجنين يعني صراحة وجوب نسيان «معتز» للأبد.. لكن لم يطل هذا الصراع الداخلي طويلاً؛ فسرعان ما تبدد هذا الحلم سريعًا وسقط حملها.. علمت أنها لن تتمكن من الإنجاب، أخبرها الطبيب وهو يرمقها بنظرة خبيثة أن عملية قد أجريت لها قديمًا تسببت في ذلك.. في هذه الليلة لم تحزن، ولم تبك.. شعرت أن ما يحدث لها ليس إلا عقابًا عادلاً على ما فعلته مع «وليد»..

من جديد عاد لها طيف «معتز»، ووجدت نفسها مضطرة إلى مواجهة مشكلتها مرة أخرى.. كانت تعلم حلها، لكنها كانت ضعيفة وخائفة.. كان الحل الوحيد أمامها أن تطلب الطلاق، وأن تتزوج «معتز»..

لكن كان للقدر تصاريف أخرى.. في إحدى الليالي وحين عاد «وليد» من عمله، أخبرها بضرورة الاتصال بأمها لأمر هام.. كانت هذه هي المرة الثانية التي تتصل بها منذ أن سافرت برفقته.. جاءها

صوتها واهنًا ضعيفًا، حاولت أن تستفهم منها ما بها.. لكن أمها لم تخبرها، وأوصتها بزوجها.. عندما أنهت المكالمة التفتت نحو «وليد»، وسألته بحدة عما يعرفه.. أجابها والحزن يعتصر صوته أن أمها أصيبت بالسرطان، وأنها في أيامها الأخيرة..

* * *

(٩)

ليلتي كانت صعبة، بعد كل ما أثارته تلك الذكريات البائسة من شجون، قضيتها كعادتي مؤخرًا ما بين الأرق والكوابيس.. والآن تأبى عيناي أن تستريحا؛ فغادرت الفراش على أمل التشاغل بأي شيء يلهيني عن تلك الذكريات التي تأبى مفارقتي.. أمسكت هاتفي المحمول، أعبث في شاشته بلا هدف.. وجدت أكثر من مكالمة فائتة، كان العقيد «أسامة الجيار».. كدت ألقي الهاتف بعيدًا بعد أن خمنت أنه يرغب في الاستعانة بخدماتي، لكني عدلت عن ذلك بعد أن رأيت مكالماتي الكثيرة لـ«داليا».. والتي لم ترد على أي منها؛ فعاودت المحاولة من جديد.. ولكن بلا جدوى، دومًا كان الجرس يستمر في الرنين إلى ما لا نهاية..

وضعت الهاتف بجواري على الفراش ثم قمت متراخيًا نحو الدولاب، أفتش عن أية ملابس أرتديها.. كنت أرغب في مغادرة المنزل بأية طريقة، لعلّي أتمكن من النسيان.. لفت نظري ذلك الصندوق الخشبي القديم، الموضوع على أحد أرفف الدولاب.. كانت «دُنيا» قد ورثته عن أمها،

وتضع به كل عزيز وغالٍ.. فتحته فوقع بصري على تلك القلادة الذهبية، المعلقة فيها سبيكة صغيرة منقوشة عليها صورة «حياة» حين كانت طفلة رضيعة..

«غريبة هي الثقة التي نشعر بها في أنفسنا، ونحن في مقتبل العمر».. غمغمت في مرارة وأسى..

كانت ثقتي في نفسي هائلة ضخمة في هذا الوقت، تفاؤل وحيوية دافقة رغم كل ما عانيته من قبل.. لعلها بسبب ذلك التحول الكبير الذي طرأ على حياتي منذ أن التقيت «دُنيا».. وربما كانت تلك الأموال الكثيرة التي صرت أجنيها؛ فأكسبتني ثقة في النفس لم أعتدها من قبل.. كنت آنذاك أسير في الحياة كمياه نهر صغير، تتقافز فرحة فوق الصخور التي تعترض مجراها.. لا أعلم أنه في نهاية المطاف يوجد بحر كبير.. لم أر هذا البحر قط، بل إنني تعمدت أن أتعامى عن رؤيته.. وصممت أذني عن صوت هدير أمواجه؛ فلم أسمعها.. تدفقت في ثقة بلهاء وزهو غبي نحو مصيري المحتوم، إلى أن ابتلعتني في نهاية المطاف أمواج هذا البحر الكبير.. سالت دموعي رغمًا عني، ومعها سال فيض من الذكريات..

تذكرت «دُنيا» حين انتفخ بطنها وتكور.. كانت تصعد درجات السلم بصعوبة، مجهدة للغاية.. الحمل في أصله وهن وتعب، لكن ذلك لم يكن ما يؤلمها حقًا.. فرغم انتفاخ قدميها، والألم الشديد أسفل ظهرها.. ومفاصلها التي كانت تئن من زيادة الوزن.. ونومها الذي بات متقطعًا، ونوبات الغثيان التي صارت جزءًا من روتين حياتها اليومي.. ورغم أنها أصبحت لا تستطيع ارتداء حذائها دون مساعدتي، ولم تعد

تتمكن من ارتداء بناطيلها الضيقة.. وحين يأتي موعد مغادرتها للفراش، تجد نفسها مضطرة إلى الاضطجاع على جنبها قليلاً قبل أن تتمكن من وضع قدمها على الأرض.. لم يكن كل ذلك يشغلها؛ فالأمر كان أكثر تعقيدًا.. صحيح أن الحمل كان أمرًا رائعًا بالنسبة لها، لكنها لم تتمكن من الاستمتاع بسحره.. كان هناك عائق خفي يمنعها من الاستمتاع به، تساؤلات كثيرة كانت تتعب عقلها.. كثيرًا ما كانت تبوح بها بعد أن تفرغ من نوبة بكاء هيستيرية.. هل ستكون أمًا صالحة؟! هل سيخرج الطفل بصحة جيدة؟! كانت تخشى دائمًا من عقاب القدر لها على ما ارتكبته، ولكني لم أمنحها أبدًا إجابة شافية على تلك التساؤلات..

ما زلت أذكر ذلك اليوم حين صحبتها للطبيب، وطلب منها أن تستلقي على سرير الكشف.. أخذ يفحصها لفترة ثم التفت نحوي يخبرني أن فم الرحم ما زال مسدودًا، لكن دون خطر عليها من أن تلد قبل الأوان.. كان مطمئنًا لأن الجنين ترك وضعية الجلوس، واستدار في الرحم.. أخبرني أن رأس الجنين اتجه للأسفل وظهره متجه نحو الأعلى، قال مبتسمًا إن تلك هي الوضعية المثالية.. بعدها أسمعنا نبض الجنين؛ سمعنا صوت دقات قلب ابنتي.. لم تكن أول مرة حقًا، لكن لا أعلم لماذا كانت هذه المرة مختلفة! انفعلت بشدة، بللت دموعي وجنتيّ.. كنت فرحًا، لكن رعشة خوف غامضة جعلت قلبي ينقبض.. أخبرتني أن هذه الفرحة لن تدوم طويلاً..

وبعد أشهر معدودات وضعت «دُنيا» حملها، جاءت «حياة» تحمل النور لأيامي..

انتبهت على صوت جرس الباب، يدق في إلحاح مستفز.. تحركت في

عصبية نحوه، حين فتحته بعنف وجدت العقيد «أسامة الجيار» أمامي..

ـ أين كنت؟! لماذا لا ترد على مكالماتي؟!

بادرني بالقول وهو يزيحني بكفه ثم يدخل إلى الشقة، أغلقت الباب ثم أجبته بلا اكتراث:

ـ كنت نائمًا.

ظهرت على وجهه علامات الشفقة حين قال:

ـ ليلتك كانت صعبة؟!

ـ أمر طبيعي، وماذا تظن سيادتك وابنتي ما زالت مفقودة؟!

صمت لوهلة وهو ينظر في عيني ثم أطرق برأسه للأرض.. أخرج من جيبه علبة سجائره ثم أشعل واحدة منها، نفث دخانها في عصبية وهو يقول:

ـ في الحقيقة، هذا ما كنت أطلبك بشأنه.

تفرست في ملامح وجهه محاولاً كشف ما يحاول قوله، لكن قلقي وتوتري أعجزاني فقلت بلهفة:

ـ قل ما لديك بسرعة أرجوك.

ربت على كتفي ثم قبض عليه بقوة حين قال:

ـ شد حيلك.

قفزت كل الأفكار السوداء لعقلي فجأة، لكني عجزت عن فهم قصده فقلت:

ـ أشد حيلي! لا أفهم.

أطرق برأسه للأسفل، وخرج صوته باردًا حين قال بنبرة رسمية:

ـ تلقينا إخطارًا من شرطة السويس بالعثور على جثة طفلة صغيرة، تتطابق مواصفاتها مع أوصاف «حياة».

انطفأ كلّ شيءٍ أمامي فجأةً، كانت الصدمة أقوى من قدرتي على التحمل.. حاولت الصراخ إلا أن حنجرتي خانتني ولم يخرج صوتي، كنت فاتحًا فمي عن آخره محاولاً الصراخ أو حتى النطق إلا أنني لم أتمكن.. دارت الدنيا من حولي بسرعةٍ كبيرة؛ فخانتني قدماي وسقطتُ على ركبتيّ..

سالت دموعي رغمًا عني، وأخذت أهز رأسي نافيًا دون أن أنطق حرفًا واحدًا.. انتبهت على يده تربِّتُ على كتفي، وهو يقول بصوت حزين:

ـ شد حيلك يا معتز، للأسف تأكدنا من أوصافها.. الآن ترقد جثتها في المشرحة تنتظر حضورك للتوقيع على محضر استلامها.

نظرتُ إليه في ذهول، كانت رؤيتي مشوشةً تمامًا، لا أرى إلا أطيافًا وخيالاتٍ.. حاولتُ أن أنطق بما يتردَّد في عقلي، لكن لساني رفض أن ينفِّذ ما أمرته به.. أصدرت له الأمر مجددًا، ولكنه بقي مُصرًا على عدم الاستجابة.. بصعوبة بالغة تمالكت نفسي؛ فبدأ عقلي يهدأ قليلاً.. وشرعت أردِّد في سرِّي:

«مستحيل، غير معقول..»

استجاب لساني أخيرا؛ فخرج صوتي مُتحشرجًا:

ـ كيف حدث ذلك؟!

ـ وجد بعض الأشخاص جثتها بالقرب من القرية التي تملك بها شاليهًا بالعين السخنة.

توقفت دموعي عن الانهمار بعد أن أنهى عبارته الأخيرة، تحجَّرت في مقلتيَّ، كانت كلّ كلمةٍ ينطق بها ترسم أمام عيني صورة حية لما أصابها.. سألته بصوت خافت:

ـ من فعل بها هذا؟

ـ حتى الآن لا نعلم، ولولا أنك كنت في ضيافتنا الأيام الماضية لكنت أول المشتبه بهم..

قاطعته صائحًا في غضب:

ـ أنت مجنون؟!

تغاضى عن إهانتي، وأكمل كأني لم أقل شيئًا:

ـ لا يوجد أمامنا الآن سوى زوجتك «دُنيا».

صمت قليلاً ثم قال بنبرة ذات مغزى:

ـ أو صاحبتك «داليا».

* * *

عادت «داليا» إلى مصر في اليوم التالي لمعرفتها بخبر مرض أمها، ورافقها «وليد».. كانت طوال رحلة الطيران تحدثه عن أمها، ذلك الشبه الكبير بينهما، وعن تلك الدعابات السمجة التي كان يطلقها أقاربهما عند قولهم إنهما أختان.. حين دخلت من باب الشقة لم تجد أمها تنتظرها في الصالون كما كانت عادتها، أخبرتها جارتها التي فتحت

الباب أن أمها تستريح قليلاً في الفراش.. اندفعت «داليا» نحو غرفة أمها، وتسمرت عند مدخلها بعدما ألقت نظرة واحدة نحو الفراش..

لم تجد أمها التي كانت تعرفها، اختفى شعر رأسها وبرزت عظام وجهها بشدة.. فقط وجدت هيكل إنسانة، وجسدًا شاحبًا خامدًا.. لم تعد نفس المرأة التي كانت أنوثتها تلفت الأنظار في أي مكان، ولم يعد لعينيها ذلك البريق الذي يفضح ذكاءها الحاد.. كانتا ذابلتين تطل منهما نظرة جامدة، خالية من أي أثر للحياة..

انهارت «داليا» باكية فوق أمها، تحتضنها وتقبل كل جزء فيها.. ربتت المرأة على رأسها بوهن، وحاولت طمأنتها.. لكن الذعر والقلق كانا قد استبدا بها من هول منظر أمها؛ فأخبرتها أنها حضرت برفقة «وليد» وأنهما لن يتركاها حتى تشفى تمامًا.. حتى لو استدعى الأمر سفرها للعلاج بالخارج..

أربعة أشهر كاملة قضتها «داليا» في أجواء من التوتر والحزن، مرض أمها ورحلة علاجها المؤلمة.. حاولت في هذه الفترة أن تبدو متماسكة قدر المستطاع، كانت كل تصرفاتها توحي بذلك.. لكن لا أحد غيرها كان يشعر بما تخفيه داخلها، حزن عميق وخوف بالغ.. كان حزنها نابعًا من إحساسها بالعجز عن مساعدة أمها، والخوف على مصيرها المحتوم وهي ترى ذلك المرض اللعين ينهش جسدها رويدًا رويدًا دون أدنى رحمة.. لكن محاولاتها المستميتة في إظهار التماسك لم تحل بينها وبين نوبات البكاء الهستيري، التي كانت تنتابها كل ليلة..

كانت بعد نوم أمها تجلس على الأرض، تستند بظهرها إلى الحائط،

تدفن رأسها بين ركبتيها ثم تشرع في البكاء دون توقف حتى تشرق شمس اليوم التالي.. كان «وليد» يراقبها في صمت ويتألم لحالها، لكن دون أن يجد طريقة لإخراجها من هذه الحالة.. زاد تدهور صحة أمها من سوء حالتها النفسية، وأصبحت أغلب تصرفاتها معه غير منطقية.. فتارة تصرخ فيه بعصبية مبالغ فيها، وأحيانا تسبه دون أدنى سبب.. والمسكين يتحمل كل هذا، يتقبله معتقدًا أنها ستعود كما كانت بعد نهاية هذه المحنة.. واستمر عذابها حتى فاجأها المرض اللعين بهجوم مريع دمر ما بقي من مقاومة لأمها في أيام قليلة..

سبعة أيام و«داليا» قابعة بجوار فراش أمها، تشعر بطيف الموت يجلس بجوارها.. يراقب في استمتاع تدهور حالة أمها، وينتظر اللحظة المناسبة للانقضاض عليها.. كان عجزها عن إنقاذ أمها يكاد يقتلها، وبخاصة عندما كانت ترى تلك النظرة المستسلمة في عينيها الذابلتين.. أيام سبعة كان الوقت يمر خلالها رتيبًا بطيئًا، لم تملك «داليا» خلاله سوى تقديم المزيد من الرعاية ومحاولات الطمأنة غير الحقيقية.. النهار أصبح غريبًا قصيرًا لا طعم له ولا رائحة، والليل بات كئيبًا مقبضًا وهواؤه مشبعًا برائحة الموت.. والموت يقترب بخطوات بطيئة واثقة من جسد أمها الراقد فوق الفراش في استسلام..

شاهدت أمها تتهاوى أمامها شيئًا فشيئًا، يوم فقدت فيه البصر ويوم آخر فقدت فيه السمع وأخيرا فقد لسانها القدرة على الكلام.. ما زالت تذكر آخر كلمات أمها قبل أن تفقد النطق، أشارت بيدها في وهن لها أن تقترب ففعلت.. خرج صوتها ضعيفًا متقطعًا:

ـ داليا، أنا خائفة!

أمسكت «داليا» بكفها وأخذت تربت عليه في حنان ثم قالت تحاول طمأنتها:

ـ لا تخافي يا ماما، إن شاء الله خير.

ـ لست خائفة من الموت.. أنا خائفة عليك!

كانت تلك آخر كلمات نطق بها لسان أمها ثم امتنع عن الكلام.. ليلتها بكت «داليا» كما لم تبك من قبل، كان أكثر ما يؤلمها هو رؤية أمها مستسلمة تمامًا للمرض.. كان أكثر ما يزعجها هو نظرات الشفقة في عيني «وليد» نحو أمها..

حتى جاء وقتها، في هذا اليوم كانت قد بدت عليها علامات تحسن طفيف.. في هذه الليلة كانت «داليا» قد صلت، ربما للمرة الأولى منذ زمن بعيد، وخانتها دموعها وبكت بحرقة حتى إنها خشيت أن تقلق أمها رغم يقينها بعدم قدرتها على سماعها.. فور فراغها عادت لجلستها المعتادة بجوار الفراش، لفتت انتباهها نظرات أمها الثابتة على نقطة معينة أمامها.. التفتت «داليا» نحو هذه النقطة، لكنها لم تر شيئًا.. فارتعش قلبها وخفق بقوة بعد أن ظنت أن أمها ترى ما لا تراه.. تساقطت قطرات دمع قليلة من عيني الأم، ومدت يدها اليمنى للأمام حين أخذت تشهق شهقات خافتة.. ثلاث شهقات بالضبط تذكرها «داليا» بكل دقة، ومع آخر شهقة توقف صدرها عن الحركة وشخص بصرها.. غادرت دنيانا للأبد..

انهارت «داليا» فوق جسد أمها، تبكي فراقها بلوعة.. لم تشعر بيد «وليد» حين جذبتها من فوق الجثمان.. كانت رؤيتها غائمة تمامًا،

لا ترى حولها إلا أطيافًا باهتة وخيالات.. صرخت في الجميع بمغادرة الغرفة، وتركها وحدها مع أمها.. غطت جثمانها المسجى بملاءة خفيفة، وجلست على الأرض بجوار الفراش تبكي.. كانت ليلتها طويلة مقبضة، لا تتصور حياتها دون أمها، لا تتخيل أنها جالسة بجوار جثمانها.. وعند الشروق غادرت الشقة ووقفت عند مدخل العمارة، لم تتمكن من حضور تغسيل أمها.. كانت تائهة، شاردة تمامًا..

وأخيرا لمحت النعش يقترب من مدخل العمارة.. نظرت نحو القادمين في اتجاهها بفزع، لا تصدق ما تراه، ولكنها حاولت أن تبدو متماسكة.. النعش ساكن فوق أكتافهم، يتهادى مع الإيقاع البطيء لخطواتهم نحوها.. استحوذ عليها انفعال عنيف عند رؤية النعش؛ فاستسلمت مغلوبة على أمرها وأجهشت بالبكاء.. من بين دموعها الغزيرة رأت صورته، مهتزة مشوشة، يقف بعيدًا عن الناس.. كان «معتز» ينظر نحوها في إشفاق، تبدو عليه علامات الحزن الشديد.. أشاحت بوجهها عنه وتجاهلته تمامًا، حاولت تجنب التقاء نظراتهما خوفًا من الانهيار الكامل.. إلا أن كآبة مخيفة بدأت تزحف إليها، تستحوذ عليها وتكاد تخنقها.. بدأ الهواء يقل من حولها، كأن المشيعين قد استنفدوه عن آخره.. فتحت فمها تحاول الحصول على قدر ولو ضئيل من الهواء، لكن دوارًا عنيفًا ضرب رأسها.. فسقطت مغشيًا عليها..

مرت أيامها الأولى بعد وفاة أمها والحزن يعشش في قلبها، يحيط بكل حياتها.. ما زالت بعض المجاملات والتعازي من الأقارب والجيران تسري عنها وتواسيها، لكن شعورًا بغيضًا بالضياع تملك منها.. بعد فترة أيقنت أنها لا بد أن تواجه مشكلتها الحقيقية، يجب أن تغير من حياتها

تغييرًا جذريًا.. عاودتها لعنة «معتز» من جديد، وأحكمت سيطرتها على عقلها تمامًا.. لكن هذه المرة كانت مختلفة؛ فلم تكن بدافع الحب ولكن الرغبة في التملك والانتقام كانا هما الدافع الحقيقي.. لم تتردد بعد ذلك ولو للحظة واحدة وواجهت «وليد» برغبتها في الطلاق، ولكن المسكين لم يستجب لها.. ظن أن طلبها يرجع لفجيعتها في وفاة أمها، وأخبرها أنه سيعود إلى عمله بالكويت.. في هذه الفترة سيتركها حتى تهدأ أعصابها تمامًا ثم يقرران بعدها مصير زواجهما..

وعادت «داليا» من جديد إلى غرفتها القديمة، ولكن لم تكن أمها هي رفيقتها هذه المرة.. بل كان الفراغ هو ما يحيط بها؛ فالبيت خاو بعد رحيل الأم.. ولم يعد يؤنس وحدتها إلا الذكريات الأليمة، أول لمسة منه وأول قبلة.. على هذه الأريكة استسلمت له، وفي هذا المطبخ وقفت تتدلل عليه.. كانت تقضي لياليها تبكي حتى تتورم عيناها، ثم تبدأ في مناجاة «معتز».. ترجوه وتتوسل إليه أن ينقذها من هذا العذاب.. وعندما يحكم اليأس سيطرته عليها، تعزي نفسها بأنها أصبحت أكثر حرية..

* * *

(١٠)

أما زلت مصرًا أيها الغريب على مرافقتي؟! حسنًا، ربما كان لقائي معك لحكمة تعلمها الآلهة وأجهلها أنا.. على كل حال ما زال الوقت أمامي طويلاً حتى أبلغ بصخرتي قمة هذا الجبل الشاهق، ولن يضيرني شيء إن أكملت لك ما بدأت من بوح..

تحققت نبوءة أمي فأسست مملكة عظيمة، وأنشأت مدينة كبيرة أسميتها «إفوري».. ربما لم تسمع عنها من قبل، لكنك قد تكون عرفتها باسم «كورنثا».. لم أكن ملكًا عادلاً؛ فقد أصبحت أستمتع بالشر.. في هذه الأثناء مات أبي «أيولوس»، وترك لنا إرث مملكة تساليا.. لكن أخي «سالمونيس» استولى على العرش، واغتصب حقي الأصيل فيه.. لم أترك حقي بالطبع، لكنني تظاهرت بمبايعة أخي وعملت على التودد إليه.. لم أكن في الحقيقة أتقرب منه، لكني كنت أعمل على التقرب من ابنته «تورو».. صدقت المسكينة كلامي المعسول، ووقعت فريسة سهلة في براثن شراكي المحكمة.. تزوجتها وأنجبت منها طفلين، كنت أعدهما للانتقام من جدهما.. أخي «سالمونيس»..

مرت الأيام وكشفت «تورو» خطتي الخبيثة؛ فقتلت الطفلين.. كانت البلهاء تظن أن في فعلتها منعًا لمخططي الكبير، لكني نجحت في استغلال فعلتها.. أقنعت كل البشر والآلهة بأن «سالمونيس» هو من قتلهما رغبة في القضاء على ذريتي، وخوفًا على مملكته من الضياع.. فحكم عليه بالنفي..

أخذتني نشوة الانتصار على أخي إلى عوالم أخرى.. تتجاوز كل ما هو محسوس ومرئي، حتى شعرت بأن الحُجُب بيني وبين المجهول على وشك السقوط.. دائمًا ما كانت نبوءة أمي تتردد في عقلي، حتى أصبحت موقنًا بصدقها.. كنت أشعر وقتها بأن روحي ستنطلق خارج جسدي محلقة، تخترق حواجز العالم البشري إلى دنيا الأسرار والحقائق الخالدة.. أصبحت شديد الثقة في نفسي، موقنًا بقدراتي المتفردة.. لم أعد أخشى شيئًا، ولا أهاب أحدًا.. حتى لو كان «زيوس» نفسه، كبير الآلهة..

دعني ألتقط أنفاسي أيها الغريب؛ فما زال طريقي طويلاً.. ألمح في عينيك نظرات الشفقة، لا تفعل.. صدقني أنا سعيد بحالي.. قد يكون الوضع غريبًا عليك، لكنه أكثر من عادل بالنسبة إليّ.. أتعلم أني كنت أتعجب مثلك عندما جاءوا بي إلى هذا المكان أول مرة.. كان قلبي يخفق بشدة، وأنا أنظر حولي في فزع، كل شيء كان بالنسبة إليّ جديدًا وغير مألوف.. لكن مع أبدية الزمن ولانهائيته اعتدت على كل شيء، واختفت حيرتي التي كانت سببًا في شقائي الأبدي..

حسنًا، دعنا لا نطِل الراحة فالوقت قد يسرقنا.. هيا ساعدني على حمل هذه الصخرة؛ كي لا يغضب «زيوس».. وسأكمل لك قصتي في أثناء صعودنا..

كنت معتادًا في هذه الآونة على الجلوس فوق سطح قلعة «إفوري».. أرنـو بنظري في فضاء مُلكي الفسـيح الممتد.. حتى رأيت في السـماء فجـأة طائرًا ضخمًا.. نسرًا عظيمًا لم أر لـه مثيلاً من قبل.. تعجبت من حجمه الهائل، لكني سرعان ما توقعت أنه قد يكون إلهًا غير من صورته لأداء واحدة من مهام الآلهة العظام.. اقترب النسر من قلعتي فهالني حجم جناحيه، وحجب جسـمه ضوء الشـمس تمامًـا.. لم أجرؤ على النظر نحوه أكثر من ذلك خوفًا من أن يصيبني غضبه.. حتى سمعت صوت صرخات ملتاعة؛ فرفعت رأسي سريعًا نحوه.. رأيته يمسـك بفتاة شابة بين مخلبيه، والمسكينة تبكي بحرقة وتصرخ في فزع.. سرعان ما حلق النسر بعيدًا عني؛ فتتبعته ببصري حتى شاهدته يحط فوق جزيرة مهجورة في وسـط البحر.. أصابنـي الذعر حين التفت نحوي فجأة، وأخذ يحدق فيّ من بعيد.. لم أشعر بنفسي إلا وأنا أسقط مغشيًا عليّ..

لم أدر الوقت الذي غبته، أفقت على صوت صراخ رجل، هززت رأسي بقوة محاولاً استعادة وعيي.. وجدته «أسوبوس» العجوز، إله الأنهار، كان المسكين حزينًا يبكي بحرقة.. اقتربت منه محاولاً تهدئته؛ فأخبرني بأمر ابنته «أيجينا»..

كانت «أيجينا» عذراء فاتنة، حبتها الآلهة وجهًا كالبدر.. رآها «زيوس» مصادفة فهام بحبها، لكنها صدته ولم تبادله الإعجاب.. لم يقنع «زيوس» بهذا الرفض، واعتبره إهانة كبرى.. أصر على ملاحقتها في كل مكان، في صحوها ونومها، والمسكينة تصر على الرفض.. أخبرني «أسوبوس» أنه لم يجد حلاً لإبعاد «زيوس» عنها إلا بحبسها في قلعته، وتعيين حرس أشداء لحمايتها.. لكن العجوز كان واهمًا؛ فمن يقدر على مواجهة «زيوس»؟!

حتى كان هذا الصباح الذي مر فيه عليها في القلعة، ولم يجدها.. كانت قد اختفت..

كان عقلي يعمل بسرعة فائقة، وقررت أن أستفيد من هذا الأمر قدر استطاعتي.. أخبرت «أسوبوس» أني أعرف مكان ابنته، وسأدله عليها فقط إن فجّر في أرضي نهرًا لا ينضب ماؤه أبدًا.. لم أكد أنهي كلمتي حتى كان لي ما طلبت؛ فأشرت له بيدي ناحية الجزيرة المهجورة.. وأخبرته أن «زيوس» هو من فعلها بعد أن غير صورته لهيئة نسر ضخم..

أسرع «أسوبوس» العجوز نحو الجزيرة المهجورة، لكنه وصل بعد فوات الأوان.. كان «زيوس» قد اغتصب «أيجينا» البريئة.. لم يقدر «أسوبوس» على مواجهته بالطبع، واستطاع «زيوس» أن يجبره على البوح بأمري.. غضب «زيوس» غضبًا عظيمًا لإفشاء سر من أسرار الآلهة، وصمم على التنكيل بي.. أمر شقيقه الإله «هاديس» حاكم العالم السفلي بالانتقام مني.. فأرسل «هاديس» يستدعي إله الموت «ثاناتوس»، وأمره أن يقبض روحي..

حين أتاني «ثاناتوس» استقبلته استقبالاً كبيرًا، وأولمت له طعامًا فاخرًا.. كنت أتحين أية فرصة للهرب من قبضته، حاولت أن أستعطفه وأن أعرض عليه الذهب.. لكنه كان مصممًا على تنفيذ أوامر كبير الآلهة «زيوس».. كلهم يخشون غضبته، ويخافون عقابه.. لكن عقلي هداني لحيلة رائعة..

سألته أن يقبل مني هدية متواضعة قبل أن يقبض روحي، لعلها تكون قربانًا يشفع لي في العالم السفلي.. قدمت له سلسلة من الذهب

الخالص، فرح لها «ثاناتوس» فرحًا كبيرًا.. لم تكن هذه السلسلة سوى قيد متين خدعته به، وتمكنت من تقييده في القلعة قبل أن أفر بعيدًا..

لا تتعجب أيها الغريب من نجاحي في الهرب من قبضة الآلهة.. فقد كنت مثلك في يوم من الأيام أظن أنه لا مهرب منهم إلا إليهم، لكني عندما فتشت في أعماق عقلي وجدت دهاليز مجهولة.. كلما فتحت باب واحد منهم تكشفت لي قدرات وطاقات لم أكن أتخيل يومًا أني أملكها.. ولذلك قصة طويلة ليس في الوقت متسع لشرحها لك.. ما يهم أني نجحت في الفرار وظل «هاديس» منتظرًا عودة «ثاناتوس» ومعه روحي، ولكن انتظاره طال واشتد قلقه على غياب إله الموت.. وتحول هذا القلق لغضب هائل بعد أن أتى إليه إله الحرب «آريس» شاكيًا ثائرًا.. فماذا بإمكان إله الحرب أن يفعل وقد اختفى إله الموت؟!

تعطل ناموس الكون؛ فكل ضحايا الحروب ينتظرون يتعذبون.. فإله الحرب لا يتوقف، لكن إله الموت غائب.. اشتد غضب «هاديس» وأمر إله الحرب بالذهاب لقلعتي لمعرفة السبب وراء غياب إله الموت.. فك إله الحرب قيد إله الموت فور أن وجده، ثم تتبعني حتى عثر عليّ مختبئًا في مكان ظننت أنهم لن يجدوني فيه.. اقتادني ذليلاً مقهورًا حتى سلمني إلى «هاديس»، الذي أرسلني للعالم السفلي.. عالم الموتى..

لا تظن أن حكايتي قد انتهت، لكنها فقط البداية.. معذرة لتوقفي عن مواصلة الصعود؛ فأنا أشعر بالعطش.. لن أتمكن للأسف من مشاركتك الشراب.. آه أيها الغريب كم أشتاق لقدح من النبيذ المعتق، وكم تتوق نفسي لفخذ من الضأن المشوي.. كنت أتلذذ بشم رائحة

لحمه حين تشعل «ميروبي» النار من تحته.. أما هنا فلا شراب لي سوى هذا القيح المغلي، ولا طعام يسد رمقي إلا الشوك.. لا تنشغل بأمري كثيرًا أيها الغريب، ودعني أكمل لك حكايتي فقد قاربنا على الوصول لقمة الجبل..

مكثت في العالم السفلي فترة لا أعلم عدتها، قضيتها أفكر في طريقة أفلت بها من براثن الموت.. حتى كانت ليلة حالكة تسللت فيها بخفة وهدوء إلى أن وصلت لمخدع «برسيفوني» زوجة «هاديس».. أخبرتها أني لا أستحق الموت وحتى إن كنت أستحقه فإن إله الحرب هو من أتى بي لهذا المكان وليس إله الموت.. أخبرتها أيضا أن جثماني لا يزال في العراء، لم تقم زوجتي بدفنه.. لم تكن «برسيفوني» تعلم أني من أمرت زوجتي بفعل ذلك حتى أجد وسيلة للعودة إلى عالم الأحياء مرة أخرى.. كنت أعلم أن حجتي قوية، وأن «برسيفوني» لها قلب رقيق.. تماديت في الطلب والرجاء، استعطفتها وتذللت لها حتى بللت دموعي قدميها.. في النهاية رق قلبها لرجائي ووافقت على إخراجي من العالم السفلي، لكن فقط لمدة ثلاثة أيام.. أعاقب فيها زوجتي، وأكلف أحد أقاربي بتنفيذ مهمة دفن جثتي.. قبلت يديها وقدميها، ولساني لا يكف عن ترديد عبارات الشكر والثناء.. ثم هرعت على الفور عائدًا لقلعة «إفوري»..

دخلت بيتي وأنا أكاد أطير من الفرح، ووجدت «ميروبي» فاتحة ذراعيها وشفتيها تمطرانني بقبلات لم أتمكن من حصرها.. شكرتها على وفائها وإخلاصها، وقضيت معها ليلة ذكرتني بأول مرة ضممتها بين ذراعي..

حين علم «زيوس» بما حدث استشاط غضبًا، وعقد العزم على التنكيل بي.. صمم على أن يجعلني عبرة لكل من تسول له نفسه تحدي حكمة الآلهة.. دبر وأحكم التدبير، تذكر ما كان بيني وبين «أوتولوكوس» عدوي اللدود من ضغائن.. وتذكر أن الإله «هرميس»، رسول الآلهة الماكر اللبق، كان عشيقًا لأم «أوتولوكوس».. أمره أن يحضرني لمحكمة العالم السفلي بأي طريقة يراها، ولم يعدم «هرميس» الوسيلة.. وجدت نفسي مجددًا أرسف في أغلالي حتى ارتميت أسفل قدمي «هاديس» حاكم العالم السفلي.. كانت المحكمة منعقدة، وكل الآلهة القضاة بهيبتهم ووقارهم حاضرين.. سرعان ما نطقوا بالحكم الذي قرره «زيوس» سلفًا..

كان حكمه أن أبقى في عالم الموتي إلى الأبد.. أحمل على كتفي هذه الصخرة الضخمة، وأتسلق بها ذلك الجبل الشاهق حتى أضعها فوق قمته.. تخيلت أن الحكم بسيط أول الأمر؛ فحاولت تنفيذه على الفور.. حملت الصخرة بصعوبة شديدة، وصعدت بها بمشقة إلى أعلى الجبل.. وما إن وضعتها فوق القمة، بعد أن أعياني التعب، حتى تدحرجت بقوة رهيبة إلى أن وصلت من جديد لسفح الجبل.. تسمرت في مكاني مذهولاً لا أفهم شيئًا، لكني فوجئت بـ«هاديس» وزوجته «برسيفوني» يدفعانني بقسوة حتى نزلت لأسفل الجبل.. أرغماني على حملها مرة أخرى ثم أشارا نحو قمة الجبل وهما يضحكان في سخرية قاسية.. في هذه اللحظة فقط فهمت مغزى حكم «زيوس» الأبدي، وللمرة الأولى تجتاحني الرهبة ويتملكني الخوف..

أتدري يا صديقي؟! معذرة إن كنت ناديتك بصديقي؛ فأنا لا أعتبرك غريبًا الآن بعد أن أخبرتك بكل ما حدث معي.. بل لا أكذبك القول

إن قلت لك إني أجد تشابهًا كبيرًا بيننا.. على أية حال فقد منحتني تلك العقوبة الأبدية سلامًا مع نفسي، ذلك السلام الذي قضيت عمري كله أبحث عنه.. لا تتعجب؛ فأنا قد فهمت الكثير من عقوبتي الأبدية..

فهمت أن الخوف، وليس الحكمة أو العدالة، هو أساس الحياة على هذه الأرض.. تعلمت أن البشر يجب أن يظلوا دومًا خائفين من العقاب والعذاب، أيًا كان نوعهما، وسواء كانا في الأرض أو في السماء.. فلن يعرف البشر سلامًا دون أن توجههم نحو ذلك الخوف عصا العقاب، ولن تستقيم حالهم إذا لم تظلل سماءهم مظلة العذاب.. عرفت أيضا أن متعة البشر الحقيقية ليست في حريتهم، ولكنها تكمن في مقدار استمتاعهم بالخوف.. هذا يا صديقي هو كنزي الثمين الذي تعلمته هنا..

ها قد وصلنا إلى قمة الجبل، وحان وقت فراقنا.. لكن قبل أن ترحل دعني أسألك أنا لمرة واحدة.. الآن بعد أن عرفت قصتي ومصيري.. ماذا أنت فاعل؟!

* * *

أن تعرف نفسك على حقيقتها..
تلك هي أقسى درجات المعرفة..

(١١)

فترت العلاقة بين «دُنيا» و«معتز» بعد ولادة ابنتهما تمامًا.. فلم تعد تهتم لأمره كثيرًا، وأصبح جل همها منحصرًا في رعاية «حياة».. حتى فراش الزوجية الذي كان شاهدًا على ليالي عشقهما هجرته، باتت تقضي كل ساعات نهارها وليلها في غرفة الوليدة الصغيرة.. في البداية لم يجد «معتز» غضاضة في تقبل هذا الأمر، لكنه مع مرور الوقت بدأ يشعر بالضجر والوحدة.. بل إنه كاد يشعر بالغيرة من ابنته، لكن حبه الشديد لها وشفقته عليها كانا يمنعانه من إظهار ذلك.. فالأيام كانت بخيلة بالسعادة التي منحتها لـ«دُنيا»..

ولم يطل زمن الفرحة التي كانت تحوط المنزل طويلاً، سرعان ما بدأ الحزن يعشش في حياة «معتز» و«دُنيا».. فبعد أشهر قليلة من ولادة «حياة» اكتشفا أنها مريضة.. كانت المسكينة معاقة ذهنيًا، لا تسمع ولا تقدر على الإتيان بأي الحركة.. فقط جسد صغير لا يقدر على التعامل مع أي شيء..

كانت صدمتهما كبيرة، لكن اختلفا في طريقة التعامل والتكيف معها.. «دُنيا» زادت من التصاقها بابنتها، ودأبت على الصلاة والعبادة، بينما كان لـ«معتز» شأن آخر.. انغمس في حياة السهر والإفراط في الشراب، ابتعد عن «دُنيا» حتى حسبت أنه هجرها أو أصبح يرغب في غيرها.. عاتبته كثيرًا، ولكنه كان على حافة الجنون..

وفي ليلة من تلك الليالي المعدودة التي نامت فيها بجواره حاولت أن توقظ داخله ما كانت تألفه من مشاعر وأحاسيس، ولكنها صدمت لذلك البرود القاسي الذي قابلها به.. لم تحاول معه مرة أخرى، واكتفت بأن أشاحت بوجهها عنه وأعطته ظهرها.. سمعته يشعل سيجارة ثم يقول بهدوء:

ـ يبدو أننا قاربنا على النهاية.

ـ قل إنك لم تعد تحبني.

ـ لكنك متأكدة من حبي لك.

ـ حديثك أصبح باردًا كأفعالك، لا معنى لذلك سوى ما قلت.

ـ ألا تشعرين بما أنا فيه؟!

ـ لا أشعر؟! أنا أموت كل يوم مئة مرة.. لكن هذا لم يعد يهم؛ فأنت لم تعد تحبني.

ـ سوف نقضي على حياتنا بهذه الطريقة.

ـ ألا تكتفي من هذه الفلسفة الرخيصة؟! كن شجاعًا وأخبرني في وجهي باسمها.

ـ دُنيا، ألا تقدرين حجم مصيبتنا؟! ابنتنا الوحيدة...

قاطعته بحدة:

ـ أنت الذي لا يقدر على تحمل المسؤولية، كن رجلاً ولو لمرة واحدة.

اعتدل جالسًا فوق الفراش ثم قال:

ـ لكني لا أقدر على تخيل ابنتنا هكذا.

ـ أنت ضعيف، ليس عندك سوى هذه الحجج الواهية.

ـ صدقيني أنا لا أحب غيرك.

ـ إذن لا تذكرني إلا بالحب.

كانت هذه الليلة هي آخر ليلة جمع بينهما فراش واحد.. بعدها أصبحا في كل لحظة يشعران أن صلة بينهما تتمزق محدثة صوتًا مزعجًا.. كل يوم يحسان أن قائمًا من أركان بيتهما يتزعزع تاركًا خلفه فراغًا مقيتًا.. أصبحت حياتهما صامتة خاوية، لا يجمع بينهما سوى شعور الشفقة والحزن على ابنتهما المسكينة.. توطدت أسباب «دُنيا» بالسماء بينما تقطعت أواصر علاقة «معتز» بها.. أمسى يقضي معظم لياليه في ملهى اللوتس، ساهمًا شاردًا.. يتجرع في مرارة كؤوسًا متتالية من الشراب، لم تفلح في أن تنسيه آلام ابنته..

ـ مرحبًا معتز بك، طال غيابك هذه المرة..

رفع «معتز» رأسه المثقل من أثر الشراب، ورمى «هاني عجاج» صاحب الملهى بنظرة فارغة من أي معنى، ثم تناول كأسه دفعة واحدة..

جلس «هاني» على مقعد بجواره دون استئذان، أخذ ينظر نحو «معتز» لفترة ثم قال بصوته الحاد:

ـ تبدو متعبًا.

ـ جائز.

ـ ألم تفكر في إجازة؟!

صمت «معتز» ولم يعقب.. صب لنفسه كأسًا أخرى، وأشعل سيجارة.. استطرد «هاني»:

ـ إجازة من كل شيء، صدقني ستعود بعدها كما كنت.

ـ مستحيل.

ـ لا شيء مستحيل، فقط كن صادقًا في نيتك، وأدعو الله أن يعينك.

ـ وهل يستجيب الله لنا في حالنا هذه؟!

صمت «هاني» وظهر على وجهه الحرج حين اقتربت من طاولتهما حسناء فاتنة.. طبعت قبلة على وجنة «هاني» ثم رنت ببصرها نحو «معتز» وقالت بدلال:

ـ ألن تعرفني على كاتبنا الكبير، أم أني لست على هذا القدر من الشرف؟!

خطف «معتز» من مفاتنها الواضحة نظرة ثم عاد لصمته، وأمسك «هاني» بذراعها يجلسها على مقعد مجاور لمقعد «معتز» ثم قال:

ـ وهل هناك شرف يماثل مجالسة نجمتنا سهر، فاتنة الرقص الشرقي الجديدة.

ضحكت «سهر» بميوعة ثم التفتت نحو «معتز» قائلة:

ـ يبدو أن المزاج متعكر اليوم.

ضحك «هاني» وقال بصوته الحاد:

ـ قولي له يا ست الستات، تعبت من إخباره أن ساعة الحظ لا تعوض.

رمقه «معتز» بغضب ثم التفت نحو «سهر» معتذرًا:

ـ ربما اليوم ليس مناسبًا للصحبة الجميلة.

اقتربت منه «سهر» فشعر بحرارة جسدها، وقالت:

ـ إذا علمت أن سعر الدولار سيهبط، هل سيتحسن مزاجك.

ابتسم «معتز» مجاملاً ثم قال:

ـ وما علاقتي بالدولار؟!

قالت بغنج:

ـ إذا كانت حال البلد كله تصعد وتهبط مع الدولار؛ فكيف لا تكون لك علاقة به؟!

ضحك «هاني» ضحكة رقيعة ثم صاح قائلاً:

ـ الله يفتح عليك يا ست الكل.

نظر «معتز» لها طويلاً ثم قال:

ـ ربما إن عدت لحالتي الطبيعية سأحاول أن أفهم الحياة فهمًا جديدًا يقرنها بسعر الدولار.

تنحنح «هاني» بطريقة قواد محترف ثم قال:

ـ إذن فاسمحا لي أن أنسحب لمتابعة بعض الأعمال الهامة.

تابعه «معتز» ببصره وهو يبتعد، تناولت «سهر» الكأس من يده ووضعتها فوق شفتيها ثم قالت:

ـ لماذا الحزن؟! لن يضرك قليل من الكلام.

ـ لا شيء.

ـ هل أنت هكذا دائمًا؟!

ـ كيف؟

ـ صامت غامض.

ـ أظن ذلك.

ـ لكن خبرتي تقول عكس ذلك.

ابتسم «معتز» رغمًا عنه وقال ضاحكًا:

ـ وأنا أحترم صاحبات الخبرة.

ـ إذن يجب عليك الإنصات والطاعة.

ـ وماذا تقول خبرتك لمن هم مثلي؟

ـ لا بد أنك محسود.

ـ محسود؟!

ـ طبعًا، كل ناجح محسود.

ـ إذن يا صاحبة الخبرة العريضة، هل لديك طريقة لأتخلص من أثره؟

ـ مؤكد.

ـ دليني إذن.

ـ لا حل لك سوى الزار.

ـ زار؟!

ـ نعم، لكن مع شيخة أثق في قدراتها كل الثقة.

ـ بركاتك.

رمقته في غضب ثم قالت:

ـ ألا ترى أن سخريتك زائدة عن الحد؟

رفع «معتز» كأسه أمام وجهه وقال ضاحكًا:

ـ القليل منها مفيد، والكثير منها مُسكِر.

قامت «سهر» واقفة وهي تقول في حدة:

ـ أعتذر إن كنت قد تطفلت عليك.

أمسك بذراعها وهو يقول بلسان ثقيل:

ـ لا تغضبي، لا أريد أن أبقى وحدي الليلة.

تهللت أساريرها وقالت:

ـ حسنًا، إليك خبر جيد.

رفع «معتز» عينيه نحوها فرآها تبتسم، ولمعت عيناها بقوة حين سمعها تقول:

ـ في كل ليلة أداوي مريضًا، واليوم أظن أنه سيكون فيه شفاؤك.

* * *

(١٢)

لم يطل غياب «وليد» كثيرًا، شهران فقط وعاد إلى مصر.. لكنه لم يقم مع «داليا» في شقة أمها، بل أقام في شقة أسرته.. كان هذا هو الاتفاق غير المكتوب بينهما منذ أن طلبت منه «داليا» الطلاق.. في البداية رفض عقل «وليد» تصديق ما سمع، وبقي صامتًا على سماعة المحمول حتى أنهت «داليا» المكالمة الدولية.. وفي اليوم التالي اتصل بها مجددًا، يستعطفها ويطلب منها إرجاء اتخاذ قرارها النهائي، لا بد أن تمنحه فرصة كافية ليثبت لها خطأ قرارها.. وافقت «داليا» على مضض بسبب إلحاحه، لكن توسلاته كانت تزيد من إصرارها على الطلاق، تمنحها شعورًا بأنها على صواب..

كانت «داليا» تشعر بأن «وليد» فشل في منحها ما كانت تصبو إليه.. كثيرًا ما كانت تسأل نفسها كيف تمكن «معتز» من الاستحواذ على روحها خلال فترة قصيرة للغاية؟! بينما فشل «وليد» رغم كل الفرص التي أتيحت له.. ومنذ أن وصلت لهذه القناعة أصبحت تنام.. لم تكن

سعيدة، ولا حزينة.. لم تكن نادمة على شيء، فقط أصبحت تتمكن من النوم فارغة من أي شعور أو إحساس..

حاول «وليد» منذ وصوله أن يبدو مختلفًا أمام «داليا»، كل ليلة يصحبها للسهر في مكان مختلف.. كان مصممًا على إبهارها، وعازمًا على الفوز بقلبها.. وفي هذه الليلة أخبرها أنه قد أعد لها سهرة مختلفة، في مكان جديد لم تذهب لمثله طوال حياتها..

ـ ما هذا؟! ملهى ليلي!

هكذا صرخت «داليا» بحدة في وجهه، بعد أوقف سيارته أمام مكان تضيء مدخله إضاءة مبهرة كتب أعلاه ملهى اللوتس.. نظر «وليد» نحوها بدهشة ثم ابتسم حين قال:

ـ شيء جديد، لم نجرب قط السهر في مكان كهذا.

ـ أريد العودة للبيت.

ـ فقط ندخل، إن لم يعجبك المكان سنرحل على الفور.

كانت الإضاءة داخل الملهى خافتة، والجو مشبع بدخان السجائر والشيشة، صوت الموسيقى مرتفع إلى درجة تقترب من الضجيج.. تلمح حركة نشيطة للغاية، النُدُل يحملون الصواني عليها زجاجات الشراب، والفتيات العابثات يتنقلن بين الطاولات في ملابسهن الكاشفة، تلتقط أذناك بصعوبة بين فينة وأخرى ضحكة مائعة.. نظرت «داليا» صوب «وليد» في غضب ثم قالت بصوت مرتفع:

ـ أيعجبك هذا الجو؟!

تعجبت «داليا» حين لم تجد منه ردًا؛ فالتفتت نحوه.. كان «وليد» مثبتًا بصره على طاولة قريبة منهما، يجلس إليها رجلان مستغرقان في الحديث.. أحدهما يبدو قوادًا، بينما كان الآخر... في هذه اللحظة سرت في جسدها رعشة قوية، كأن تيارًا كهربائيًا عنيفًا قد ضرب أطرافها.. كان «معتز» هو الرجل الآخر، تمامًا كما كانت تحفظ كل تفاصيله.. فقط كانت عيناه غائمتين بعض الشيء، وجفناه منتفخين قليلاً..

ـ أليس هذا كاتبًا معروفًا؟!

انتبهت على صوت «وليد» يحدثها، ولكنها اكتفت بإيماءة بسيطة من رأسها ولم تعقب.. كانت قد انتقلت إلى مكان آخر، عالم خلا من كل شيء سوى «معتز».. نظراته هذه تعشقها، تلك النظرات التي لا تعرف منها أينظر بها إليك أم أنه لا يراك.. شفتاه الممتلئتان، المفتوحتان دومًا قدرًا يسيرًا.. لا تدري ما بينهما، ابتسامة أم لا.. غرقت «داليا» في النظر نحوه، كانت تعلم أنه من الناس الذين تضطر بمجرد رؤيتهم إلى أن تنظر إليهم طويلاً، لأن بهم شيئًا يميزهم عن باقي الموجودين من حولك..

ـ أظنه معتز الراوي!

كانت أول مرة تسمع فيها «داليا» اسمه من زوجها.. صوت «وليد» كان مبهورًا، كأنه رأى شيئًا رائعًا، اغتاظت «داليا» منه بشدة..

«لماذا كل هذا الانبهار؟! لماذا لا يملك شخصية براقة كتلك التي يمتلكها معتز؟!»

هكذا حدثت «داليا» نفسها في ضيق.. شعرت بالسخط عليه،

والقرف منه.. أحسـت بأنه ضئيل جدًا، وتافه للغاية.. لكن سخطها كان مـن «معتز» أكبر.. كانت تراه في جلسـته وكأنه يملك الدنيا وما عليها، متعاليًا ومغرورًا، وهذا القواد الجالس إلى جواره يتملقه.. كم تمنت لو أنها قامت من مكانها وضربته، صفعته على وجهه.. حتى التفت «معتز» ينظر نحوها بجفنيه المنتفخين، لم تدر أكان ينظر نحوها عامدًا أم بغير قصد.. لكنها شعرت بنظراته تنقل لها أحاسيس عجيبة، ليس لقلبها أو لروحها.. بل إلى جسـدها؛ شعرت بسخونة شديدة تعتريها ورعشة تنتابها.. بحركة لاإرادية مدت يدها تشد ثوبها إلى أسفل، وبيدها الأخرى دارت ما يكشفه الثوب من صدرها.. كانت كأنها تحمي نفسها من تلك النظرات، ولكنها مع ذلك اسـتمرت في النظر نحوه.. كانت نظراتها جريئة صريحة، دون أن تخشى من زوجها الجالس بجوارها..

جاءها صوت «وليد» يقول:

ـ ما رأيك لو ذهبنا وسلمنا عليه؟! ربما نحظى بصورة معه.

أجابته بصوت هامس، لا يخلو من حدة:

ـ كلا، لا أحب التودد لهؤلاء المغرورين.

ـ ليس مغرورًا على الإطلاق، يبدو أنه شخص لطيف.

ـ قلت لك لا.

نظر «وليد» نحوها في دهشة، هز كتفيه بلا مبالاة ثم سكت.. لم يرها «معتز» في هذه الليلة، بل لم تلحظ هي في نظراته أنها أثارت انتباهه أو حتى لفتت نظره.. بعد فترة قصيرة وجدت امرأة فاتنة تتأبط ذراعه، وشاهدته يغادر برفقتها مترنحًا.. جزت على أسنانها في غيظ، وعادت

ذكرياتها الأليمة توجعها فجأة.. تذكرت ذلك الألم الحاد في بطنها، ذاك الطبيب السمج الذي عبث في جسدها.. انتفضت واقفة بغضب، صرخت في «وليد» بعصبية:

ـ أريد العودة للبيت.

طوال الطريق كانت صامتة، ترنو ببصرها في شرود من زجاج النافذة بجوارها.. لم تفق إلا حين اقترب منها «وليد» وطبع قبلة على خدها.. نظرت حولها فوجدت أنها أمام مدخل العمارة.. حاول «وليد» التقرب منها مجددًا، لكنها صدته بلطف.. نفرت من أمامه وقالت:

ـ بيننا اتفاق.

انصاع «وليد» مرغمًا لرغبتها، غادر معتذرًا والحسرة تكاد تنهشه.. وحين أغلقت «داليا» باب الشقة خلفها كانت تشعر بأنها أكثر حرية من قبل.. فقط عقبة صغيرة تمنع حصولها على حريتها الكاملة، هذه العقبة هي «وليد».. كانت تشعر بالضيق منه، بل كانت تشعر نحوه بالاحتقار.. فذلك الإلحاح السخيف، وهذا الخنوع البغيض كانا لا يقابلان منها إلا برد واحد فقط.. الرفض.. أصبحت تشعر أنه ليس رجلاً، بل طفل كبير لا يستحق أن يكون زوجها.. لذا فإنها لا بد أن تمنح نفسها لرجل كفء لها، يكون كبيرًا مثلها، بل أكبر منها..

وقفت أمام مرآتها، وقد خلعت كامل ثيابها، تتأمل جسدها.. تحدق مليًا في كل ثنية، كل خط وانحناءة.. وابتسامة واسعة تملأ روحها بالرضا عما تراه، فجأة قطبت جبينها حين وثب إلى ذهنها سؤال:

«لماذا لم ألفت نظره؟! ولو حتى من خلال نظرة عابرة..»

أشاحت بوجهها بعيدًا عن المرآة بعد أن تملك الغيظ منها، وتساءلت في ضيق:

«لماذا رأيته اليوم من جديد؟! لماذا يصر القدر على تعذيبي؟!»

كادت تبكي بعدما طفت أمام عينيها صورة زوجها يجلس بجوارها مبهورًا، ابتسامته سائلة على شفتيه، ينظر نحو «معتز» راغبًا في مصافحته والتعرف عليه.. أحست بالفشل يطل برأسه القبيح وينظر نحوها، يبتسم لها ساخرًا ثم يخرج لسانه.. كان عذابها مريرًا، عذبها سخطها وفشلها وضعفها تجاه «معتز»..

ألقت بجسدها منهارة فوق الفراش تبكي بحرقة، تتذكر ما كان بينها وبين «معتز».. زارتها من جديد ذكرى عيادة الهرم المقبضة؛ فاعتدلت جالسة.. أمسكت بهاتفها المحمول في تصميم، ودخلت على شبكة الإنترنت تبحث عن صفحة «معتز»..

«لا بد أن كاتبًا شهيرًا مثله يملك حسابًا على فيسبوك..»

لحظات وظهرت صورته التي تحفظها أمامها على الشاشة، نقرت بأناملها على طلب الصداقة.. لكن الرد كان مخيبًا لآمالها باكتمال عدد الأصدقاء لديه، لم تيأس وأرسلت له رسالة مقتضبة:

«أنا داليا الكاشف، أرجو الاتصال بي، ما زال رقمي كما هو لم يتغير»..

ارتسمت على شفتيها ابتسامة واسعة، لمعت عيناها بقوة وتمتمت تحدث نفسها:

«سنعمر البيت يا معتز، سنعمره من جديد..»

* * *

(١٣)

«من هذه اللحظة أنت حر!»

استيقظ «معتز» على هذه العبارة يتردد صداها في عقله، بعد نوم ساعة أو ساعتين على أكثر تقدير، طرق أذنيه صوت شخير خافت.. انتبه على رائحة غريبة تنتشر في الغرفة، رائحة آدمية عميقة الأثر في الحواس والغرائز.. التفت إلى جواره فرأى وجه «سهر» باهتا مرهقًا، كانت مستغرقة في نوم عميق.. مهوشة الشعر، تنفرج شفتاها عن شخير خفيف متواصل.. مطروحة على بطنها، عارية الظهر.. لا يستر جسدها إلا ملاءة خفيفة متكومة فوق مؤخرتها المكتنزة، وقليل منها يتدلى فوق فخذيها.. تأملها «معتز» لفترة، لم تكن كما رآها بالأمس فاتنة ساحرة.. ذهبت عنها جاذبيتها بعد أن سرى مفعول الشبع والنوم فيها، كانت جسدًا مكتنزًا بالشحم واللحم، لا أكثر ولا أقل، لم يشعر لروحها بأي وجود.. مجرد دمية آدمية قد يلهو بها الرجل حينًا، لكنه سرعان ما يزهد في أمثالها.. اعتدل جالسًا في الفراش فاكتشف أنه لا يزال عاريًا..

جال ببصره وسط الظلام ثم قام محاولاً العثور على ملابسه.. كاد يتعثر بمنضدة زجاجية السطح فوقها زجاجة ويسكي فارغة، ووعاء ثلج فارغ أيضًا.. أخذ يسب ويلعن في سره..

كان يشعر باشمئزاز كبير من نفسه، صداع فظيع يكاد يعصف برأسه، يتساءل ما الذي جاء به إلى هنا؟! تعجب كثيرًا من تغير حالته بين عشية وضحاها؛ بالأمس كان يراها شيئًا أسطوريًا متوهجًا بينما الآن يسمع شخيرها فلا يرق قلبه ولا تبتسم روحه..

ـ سترحل؟!

التفت نحوها فوجدها قد اعتدلت جالسة، وأضاءت مصباحًا صغيرًا بجانب الفراش.. كانت تلملم الملاءة الخفيفة حول نهديها العاريين فلم يظهر منهما إلا ذلك الأخدود العميق بينهما، وتنظر نحوه في رجاء وأمل.. أشاح بوجهه عنها سريعًا ثم قال باقتضاب:

ـ تأخرت.

ـ هل أنت بخير؟!

ـ أظن ذلك.

ـ خبرتي تحدثني بأنك ما زلت تحتاج إلى عناية خاصة.

ـ هل تصدقين ذلك؟

ـ كلا، ولكن الوحدة تجبرنا على التمسك بأي شيء.

ـ لست وحيدًا.

ـ أنا وحيدة.

صمت تمامًا ولم يعقب، شعر بشيء من الشفقة يتسلل إلى قلبه، ولكنه تظاهر بالانشغال في ارتداء ملابسه فاستطردت متسائلة:

ـ إذن من أنت؟!

ألجمه سؤالها؛ فهو حقًا لا يعلم له إجابة.. تمالك نفسه سريعًا ثم قال وهو يستكمل ارتداء ملابسه:

ـ لم تسألين؟

ـ لأني أريد أن أعرفك أكثر.

ـ صدقيني لن يفيدك ذلك.

ـ دُنيا محظوظة بك.

صمت «معتز» ولم يعقب، واستطردت هي متسائلة:

ـ سأراك مرة أخرى؟!

ـ لا أعرف.. ربما!

غادر شقتها سريعًا، كأنه يفر من نفسه، ربما كان يحاول الفرار من قدره أو مصيره.. حين وقف أمام مدخل العمارة أحكم إغلاق سترته جيدًا، كان هواء الفجر باردًا.. نظر إلى السيارات الواقفة أمام العمارة، تذكر أنه ترك سيارته عند ملهى اللوتس.. اعتراه الغضب لوهلة، لكن سرعان ما سكنت نفسه بعدما فكر في أنه قد مضى زمن طويل منذ آخر مرة تمشى فيها وحده.. أشعل سيجارة ونفث دخانها مستمتعًا بتلك

البرودة اللذيذة التي سرت في جسده.. إحساس غامض بالسعادة المؤقتة غمره، دفعه لمواصلة السير دون هدف محدد، لكن سرعان ما غطى الاضطراب على هذه السعادة الزائفة.. سمع صوت مؤذن الفجر؛ فرفع نظره للسماء.. كان الظلام يلملم عباءته ببطء شديد، سامحًا لقرص الشمس الباهت بالظهور على استحياء.. ربما في ضوئها تبدو الأشياء واضحة، ولكنها أبدًا لا تكون على حقيقتها إلا في الظلام.. استبد به الحنق من تلك الأفكار السوداء التي تأبى مغادرة عقله.. أوقف سيارة أجرة كان صاحبها يهيم في الشوارع باحثًا عن بضعة جنيهات إضافية تعينه على ضنك العيش.. أخبره بالتوجه إلى المعادي..

حين فتح باب الشقة كان الهدوء مسيطرًا على المكان.. «لا بد أنهما نائمتان».. هكذا حدث «معتز» نفسه..

ترامت إلى ذهنه أصوات بعيدة، حملت معها ذكريات قديمة.. جاءه صوت «دُنيا» حين أخبرها برغبته في الزواج بها..

ـ معتز، هل أنت متأكد؟!

ـ أكيد.

ـ ولكن هناك أشياء كثيرة تعوق زواجنا!

ـ لم أعد أكترث، صدقيني.

ـ أخاف أن يكون هذا مجرد حلم.

ـ دُنيا، نحن أقوى من أي حلم.

ـ ولكن أهلك؟!

ـ لا داعي للخوف.

ـ لا أدري.

جز «معتز» على أسنانه في ضيق، وأخرج من جيبه هاتفه المحمول محاولاً التشاغل به عن تلك الذكريات المؤلمة.. لكنه وجده مغلقًا؛ فتوجه نحو قابس الكهرباء بعد أن أوصله بالشاحن.. تحرك نحو غرفة «حياة» ليطمئن عليهما، وصوت «هاني عجاج» يتردد في أذنيه حين كان حديثهما بعد الزفاف..

ـ مبارك عليك يا معتز بك، لقد فزت بأجمل الجميلات.

ـ أراك تنعى خسارتك لا تبارك زواجي!

ـ صدقني أنا أعرفها منذ زمن، ولكني أخشى عليك.

ـ لا تقلق.

ـ إذن فقد أصبح الماضي في خبر كان.

ـ لا أهتم به.

ـ أرجو أن تكون بها رحيمًا، فليس لها سواك في هذه الدنيا.

ـ قلت لك لا تقلق.

ـ أعلم أنك تضحي بزواجك بها، لكن اعلم أن تضحيتها أكبر.

توجه «معتز» صوب غرفة ابنته «حياة»، كان بابها مواربًا.. اختلس منه نظرة عابرة، رأى «دُنيا» نائمة تحتضن ابنتهما.. تحرك ضميره فجأة

فشعر بوخزة توجعه، وتذكر أنه حين أحبها وتزوجها كانت قلبًا نابضًا لا نهاية لعطائه.. شخصية متفردة شديدة الفتنة، ألهمته ومنحته الدافع للعمل.. معها ارتفع من غمار العدم إلى قمة التفوق والثروة الطائلة.. وجد في حرارة حبها عزاء عن الفشل في الكتابة والحياة.. كانت بالنسبة إليه واحدة من آلهة اليونان القديم، كانت إلهة الجنس وأيضا إلهة المال..

«ما الذي حدث إذن؟!».. تمتم «معتز» في ضيق..

لم يكن يعلم ما الذي تغير داخله، ويدفعه دفعًا للزهد فيها.. لم يعد يرغب في قبلتها، ولا حضنها، بل إنه حتى لم يعد يرغب في الوجود معها تحت سقف واحد.. ربما كانت ابنتهما هي السبب، كان لا يتحمل النظر لها بحالتها المزرية تلك.. فالألم الذي يتصور أنها تعانيه كان يفوق قدرته على التحمل.. تقلبت «دُنيا» في الفراش على جنبها؛ فانحسر الغطاء عن قميص نوم يداري جسدها الذي ما زال محتفظًا بفتنته..

أشاح «معتز» بوجهه، وتحرك نحو الشرفة.. لفحه هواء الصباح البارد؛ فأشعل سيجارة ووقف شاردًا ينظر لصفحة ماء النيل الراكد تمامًا كحياته في الآونة الأخيرة.. كان الجو غائمًا والسماء تشع بلون رمادي مقبض، وقطعان من السحب تنتشر بين جنباتها.. الطريق يكاد يكون خاليًا تمامًا من المارة، والسكون قبر من الوحدة والصمت.. حتى الكلاب والقطط لم تدب أقدامها بعد فوق الأرض.. وللمرة الأولى يفكر في التخلص من حياته.. لم يعد يرغب في شيء، حتى هذا الهواء البارد المنعش لم يعد له أي أثر في نفسه..

«ولكن من لدنيا غيري في هذه الحياة؟!»

غمغم في حزن ثم طوح سيجارته بعيدًا ودخل إلى الصالة.. أمسك بهاتفه المحمول وضغط زر تشغيله، كان الشحن قد بدأ يسري فيه قدر معقول..

عاودته الأفكار المقبضة مرة أخرى، وتذكر تجربته مع «سهر» منذ سويعات قليلة.. تجربة الغرام المريرة، عرف بها أن إحساسه قد ضمر ونضب.. لم يعد متبقيًا له منه سوى حرارة الجسد المرتفعة، تلك الأنفاس اللاهثة وذلك الخفقان السريع لقلبه.. موجات متتالية من النشوة، لكنها كانت جافة جرداء.. كان فقط يشعر أنه كالبحر، تتتابع موجاته واحدة تلو الأخرى في رتابة مزعجة.. حتى تعلو واحدة منها علوًا جنونيًا، ثم تنكسر عن الزبد وأخيرًا تسكن في موات.. كانت «سهر» تتلو ترانيم العشق وهو صنم أبكم، كانت راغبة وهو زاهد.. ربما لو كان قابلها في وقت آخر لكان له معها شأن مختلف، لكنه الآن قد تغير.. لا يعرف ماذا يريد، لم يعد يريد نجاحات جديدة، ولا أصفارًا يضيفها لرصيده في البنك.. ربما قيدته هذه الزيجة، أو كسرته «حياة».. ربما كان يرغب في الانطلاق والتحليق بعيدًا..

«ماذا أريد حقًا؟!».. هكذا تساءل في ضيق..

انتبه على صوت هاتفه المحمول يخبره باستقبال رسالة جديدة.. فتحها على الفور، ارتسمت على شفتيه ابتسامة ربما للمرة الأولى منذ فترة طويلة.. تمتم بصوت بدا حالمًا:

«داليا»..

* * *

(١٤)

«يجب أن أسرع، لا أريده أن ينتظر»..

غمغمت «داليا» بينما كان الماء الفاتر ينهمر فوق جسدها.. اغتسلت جيدًا ثم تنشفت، وغادرت الحمام بعد أن لفت جسدها ببشكير أبيض.. وقفت أمام دولاب ملابسها متحيرة، كانت لا تعلم ماذا ترتدي.. ففي الصباح الباكر كانت قد قررت أن فستانها الأحمر سيكون مناسبًا لإظهار أنوثتها، لكن بعد فترة غيرت رأيها وعزمت على ارتداء تنورة قصيرة إلى حد كبير لتبرز جمال ساقيها.. الآن كانت حيرتها على أشدها بعد أن رفض عقلها أيًا من الاختيارين..

زفرت في ضيق ثم تحركت نحو المرآة الضخمة المثبتة في الدولاب، حررت جسدها من البشكير الذي كان يلفه ثم طوحت به فوق الفراش..

«ما زلت قادرة على الإغراء؟!».. هكذا تمتمت «داليا» وهي تتأمل نفسها..

دارت حول نفسها دورتين، وأومأت برأسها في رضا.. كانت لا تزال تحافظ على لياقتها وتناسق جسدها جيدًا.. تعطرت بعطر باريسي فاخر، ظنت أنه سيروق له، وارتدت بنطالا من الجينز الأزرق وقميصًا أبيض أسفل سترة من الجلد الأسود.. جلست على حافة الفراش تضع قدمها في حذائها الأسود ذي الرقبة الطويلة.. وأخيرا ربطت شعرها المبتل بقطعة من القماش المزركش، ثم نظرت إلى صورتها في المرآة.. أراحها ذلك المظهر الغجري الذي بدت عليه، كانت على يقين بأنه سيروق له، كانت تشعر بأنها قد صغرت عشر سنوات على الأقل.. أمسكت بهاتفها المحمول بعد أن علا صوته بالرنين، وافتر ثغرها عن ابتسامة ساحرة بعد أضاءت شاشته باسم «معتز»..

نزلت السلم باندفاع وسرعة بعد أن أغلقت باب الشقة خلفها بقوة.. وما كادت تقترب من مدخل العمارة حتى بدأت ضربات قلبها في التصاعد.. تحول صوتها إلى إيقاع سريع، يشبه دقات طبول الحرب.. فات الأوان، عندما رأت سيارته الميني كوبر الحمراء شعرت ببرودة تسري في أطرافها، وبدأ أنفها يشم كل روائح زمن الطفولة والشباب.. تغلبت على كل مشاعر القلق والرهبة، واقتربت من باب السيارة.. بيد مرتجفة فتحته، ثم ركبت بسرعة كأنها تخشى أن تغير رأيها..

ما إن ركبت السيارة حتى فقد العالم من حولها واقعيته تمامًا.. بدا كل شيء كأنما تكسوه غلالة رقيقة لونها أبيض، حالمة وشفافة.. شعرت بانفصال عجيب عن جسدها، كأنها باتت خفيفة الوزن ترفرف في السماء.. غاصت في المقعد الجلدي وأخذت نفسًا عميقًا من الهواء، تنفست رائحة السيارة لتؤكد لنفسها أنها ما زالت في العالم الحقيقي..

ـ داليا! أنت بخير؟!

التفتت نحوه بسرعة بعد أن انتبهت لحديثه، تمالكت نفسها سريعًا ثم قالت:

ـ نعم، نعم.

ارتسمت على وجهه تلك الابتسامة الساحرة التي عشقت كل تفاصيلها، واستطرد قائلاً:

ـ كنت أسألك عن حالك!

ـ أنا بخير.

ـ أرى ذلك جيدًا.

اختلست «داليا» نظرة خاطفة نحوه، كان جانبا شعره قد تحولا إلى اللون الرمادي قليلاً، وظهرت تجاعيد خفيفة في جبهته على استحياء.. كعادته بدا أنيقًا في قميصه الأبيض وبنطاله الجينز، حتى جسده بدا متناسقًا رشيقًا كما عهدته.. بعد فترة من الصمت قالت تداعبه:

ـ لم يؤثر الزمن في حس دعابتك كتأثيره في شعرك الرمادي.

ضحك «معتز» طويلاً ثم نظر نحوها وقال:

ـ ما زلت جميلة.

ـ أشكرك، أنت أيضا ما زلت محتفظًا بسحرك.

ـ بل إنك الآن أكثر جمالاً.

كانت تعلم أنها جميلة، جعلها ذلك تشعر بالنصر في قرارة نفسها، لكن رغم ذلك احمرت وجنتاها خجلاً.. تمالكت نفسها بسرعة حين قالت:

ـ دعك من هذه المجاملات؛ فأنا الآن امرأة ناضجة.

أنهت عبارتها ثم داعبت خاتم الزواج في إصبعها بحركة لاإرادية.. سكت «معتز» لفترة ثم قال كاسرًا حاجز الصمت:

ـ سعيدة في زواجك؟

ـ أسعى للطلاق.

ـ خلافات؟

ـ لم نتفق.

ـ لديك أولاد؟

غصة مفاجئة أصابتها ورغبة ملحة في البكاء، لكنها تمالكت نفسها وأجابت باقتضاب:

ـ لا.

حاول «معتز» تغيير مجرى الحديث فقال:

ـ أخبريني إذن، ماذا تفعلين هذه الأيام؟

ـ لا شيء، منذ وفاة ماما وأنا أمكث في البيت.

ـ وأين زوجك؟

ـ في الكويت.

ـ ألا تعيشان معًا.

ـ كنت معه هناك، لكن بعد وفاة ماما قررت أن أعود.

ـ أما زلت غاضبة مني؟

صدمها سؤاله المباغت، لم تجد له ردًا فالتزمت الصمت فترة.. شعرت بأنها مستنفدة، ألم حاد يمزق أعماق قلبها.. ألم حسبته قد ذهب وولى منذ زمن بعيد.. تمالكت نفسها بسرعة وضحكت بعصبية حاولت مداراتها حين قالت:

ـ بعد كل هذه السنوات؟! لقد مر زمن طويل.

حدق بها «معتز» وقال:

ـ حقًا؟!

تحركت رموشها الطويلة في عصبية ثم قالت:

ـ يبدو أننا وصلنا.

توقفت الميني كوبر أمام مطعم «كورتيجانو»، ذلك المكان الذي يحمل بين أركانه ذكريات كثيرة لهما.. تعمدت أن تؤخر خطواتها خلفه قدرًا يسيرًا، أدهشها أنه اختار نفس الطاولة التي اعتادا الجلوس إليها.. بادرته فور جلوسهما:

ـ ها.. احك لي كل شيء.

لم يكن صعبًا عليها أن تفتح بوابات قلبه.. كان متعبًا يائسًا، وكانت هي مستعدة لاحتوائه بكل أسلحتها.. أخبرها عن كل ما حدث له في

السنوات السابقة، عن زواجه بـ«دُنيا» وعن «حياة»، نجاحاته الكبيرة في الكتابة وإخفاقاته المتكررة في الدفاع عن مبادئه وأحلامه القديمة.. لم يشعرا بمرور الوقت سريعًا، كأن عجلة الزمن قد توقف دورانها عندهما.. فجأة نظرت إلى شاشة هاتفها المحمول، ورفعت حاجبيها المرسومين بدقة ثم قالت في دهشة:

ـ لقد قاربنا على منتصف الليل!

ـ وماذا في ذلك؟

ـ لا بد أن نذهب الآن.

لم يجادلها «معتز»، وانصاع لرغبتها.. طوال طريق العودة لمنزلها كانا صامتين، لا يتحدثان.. لكن حديثًا آخر كان دائرًا بين روحيهما، حديثًا لا يفقهه سواهما..

توقفت الميني كوبر أمام مدخل عمارتها، بدا عليها التوتر قبل مغادرة السيارة.. أمسك «معتز» بيدها وجذبها قليلاً ناحيته، طبع قبلة حانية على خدها.. عندما فعل ذلك، بدأت «داليا» ترتعش بعنف.. نجحت في إخفاء يديها المرتعشتين حين ضمت قبضتيها بقوة، لكن لم يكن هناك ما تستطيع فعله حيال ساقيها.. كأن مخدرًا قويًا سرى في جسدها، شعرت حين حاولت النزول من السيارة كأنها توشك على السقوط.. ثم سرى عطره في أنفها فزاد من أثر الدوار..

ـ سأراك مرة أخرى؟

أجابته بصوت خرج ساهمًا رغمًا عنها:

ـ أكيد.

ترجلت من السيارة أخيرا، لوحت بكفها له مودعة.. ثم استدارت وخطت نحو مدخل العمارة.. بدأت في صعود درجات السلم، حينها فقط تركت دموعها تسيل على خديها..

* * *

(١٥)

استيقظت «دُنيا» مع أشعة الشمس المشرقة، صوت تغريد العصافير يملأ أذنيها.. لكن بمجرد أن فتحت عينيها اعتصر قلبها ألم حاد، هاجس داخلي يخبرها أن قلب «معتز» لم يعد ملكًا لها.. كانت غريزة الأنثى تحدثها بذلك، تلح عليها وتؤكد.. لكنها كانت تكابر، تستمرئ خداع نفسها.. كانت تحبه؛ فمعه تغيرت حياتها تمامًا.. استكانت بين أحضانه عوضًا عن التنقل بين أحضان الرجال.. لكنه أصبح الآن لا يشعر بها على الإطلاق، يتخذ من مرض «حياة» ذريعة للهرب من البيت بل للفرار حتى من دفء أحضانها..

«لعله لا يعرفني حق المعرفة، ربما يكون في موته الحل..»

تعجبت لوهلة من هذا الخاطر المخيف الذي مر بذهنها.. فرغم كل ما تكنه له من حب، خشيت من ذلك اليقين القابع في قرارة نفسها بأنها ستجد موته أكثر إرضاءً لها.. كان يقينها نابعًا من أن تأقلمها مع موته سيكون أفضل من بقائها وسط كل هذا الكم من الشك والريبة..

إلا أنها عادت على الفور ونهرت نفسها عن هذا الخاطر المرعب، كانت تحبه حقًا بل أكثر من ذلك كانت شديدة التعلق به وبحياتهما التي أقاما أركانها معًا.. لا تتخيل الحياة من دون وجوده فيها..

رغم خبرتها الكبيرة في التعامل مع صنوف البشر، وبحكم مهنتها السابقة، كانت تفشل دومًا في استيعاب ربط الناس بين الحب والتعلق.. فهاتان عاطفتان مختلفتان لا رابط بينهما؛ فحيث يوجد الحب الصادق لا وجود للتعلق أو الشغف.. فالشغف شعاره الأوحد «كن لي وحدي»، بينما يرفع المحب دومًا شعار «كن سعيدًا مع من تشاء».. ربما يختلط الحب الأعمى بالرغبة في الارتباط، لكن سبب الهوس هنا يكون هو عمى الإعجاب المفرط.. ورغم أن هذا العمى غالبًا ما يكون مؤقتًا، يمكن أن يصبح الكره الذي يولد في هذه الفترة دائمًا..

هزت رأسها بعنف وتفَلَت عن يسارها ثلاثًا، تطلعت في حب للوجه الرائق النائم إلى جوارها في سلام.. كانت «حياة» تبدو طفلة بريئة بشعرها المتموج غير المرتب، شفتاها المضمومتان كأنهما تدعوانها إلى قبلة صباحية.. أمسكت «دُنيا» نفسها عن مداعبة شعرها، وقامت من الفراش ببطء وهدوء خشية إيقاظها.. توجهت نحو المطبخ، وملأت الغلاية بالماء.. ربما كان الأمر غريبًا بالنسبة لها، إذ شعرت أن الغلاية تعاندها.. فحين ضغطت على زر تسخين الماء لم تستجب لها، حاولت أكثر من مرة لكنها فشلت في جعل الغلاية تعمل كما هي عادتها..

«اللعنة عليك، أهذا وقت جيد للموت؟!».. غمغمت في حنق..

نظرت نحو كرسيها الأثير الذي تضعه بالقرب من منضدة المطبخ،

شعرت أنه أيضا ساكن في هذا اليوم لا حياة فيه.. لا تعلم لماذا تكثر من التفكير في الموت هذا الصباح! انتابها إحساس عجيب بالغربة عن كل الأشياء، شعرت بأنها إن ماتت فلن يختلف شيء.. مجرد شخص غادر هذا العالم البائس، هذا العالم الذي كانت تمنحه كل الاهتمام، قضت عمرها تحاول أن تصبح جزءًا منه وأن تحفر لنفسها مكانًا بارزًا فيه.. كل هذا الوهم والسراب سرعان ما سيتبخر عند الموت، لن تسمع حينها سوى أصوات حزينة تنعاها.. ربما ترامى بعضها إلى سمعها الآن، سمعتهم يقولون: «مع السلامة، فقد كنت لا شيء!»..

اغرورقت عيناها بالدموع، وتحركت نحو غرفة نومها.. اختلست نظرة من خلف بابها الموارب، كان «معتز» مستغرقًا في النوم، مستكينًا هادئًا تمامًا كما عهدته.. لا تعلم ما سبب هذه الشكوك التي باتت تساورها نحوه في الفترة الأخيرة! ربما بسبب امتناعه عنها مؤخرًا.. تذكرت كيف كانت تشعر بالخوف من فكرة بناء حياة جديدة معه، رهبتها من التخلي عن كل النجاح والشهرة التي حققتهما من عملها.. فكرة أن تتحول لمجرد دافع يدفعه نحو سلم النجاح والمجد..

فقبل ذلك اليوم كانت «دُنيا» معتادة على اتخاذ قراراتها الخاصة، وارتكاب أخطائها الخاصة أيضًا.. كانت معتادة على تحمل عواقب أفعالها، ولكنها لم تكن قط مهيأة لتكوين أسرة ولا معتادة على التضحية.. ربما لو عرفت أن المسؤولية التي تنتظرها أكبر حتى مما توقعت لارتعبت أكثر، أو ربما كانت تمهلت أو أرجأت تنفيذ هذه الخطوة.. كل هذا كان قبل أن تعشقه..

«فات أوان الندم الآن»..

هكذا غمغمت في حزن، وانسحبت بعيدًا عن غرفة النوم متوجهة نحو الصالة.. ارتمت فوق مقعد وثير، وسالت دموعها فوق خديها.. كانت تشعر بالحسرة كلما تذكرت ما كانت تشعر به من فرحة وقت أن انتقل «معتز» للإقامة معها.. شعور لن تتمكن من وصفه أبدًا مهما حاولت، شعور بالتملك والثقة وربما الحب.. كثيرًا ما كانت تسأل نفسها عن السبب الحقيقي الذي جعله يوافق على الارتباط بها، رغم فارق العمر بينهما.. لكنها لم تصل لإجابة شافية، كان غرورها وثقتها المفرطة في نفسها يخبرانها أنها جميلة ومطلوبة.. كل الرجال في اللوتس كانوا يرتمون أسفل قدميها، يتمنون فقط رضاها.. لكن «معتز» كان مختلفًا..

«لولا حياة لكان لي معك شأن آخر»..

تمتمت بحنق وهي تمسك بريموت التليفزيون، تحاول إلهاء نفسها بمتابعة أي شيء يخرجها من هذه الحالة السيئة التي تأبى مغادرتها منذ الصباح.. انتبهت على صوت هاتفها المحمول يرن، قرنت حاجبيها في دهشة حين رأت اسم «هاني عجاج» فوق الشاشة.. كانت تتجاهل الرد على مكالماته الكثيرة، التي لم يكف عنها منذ زواجها بـ«معتز».. لا تعلم ما الذي يدفعها للرغبة في الرد عليه هذا الصباح، ربما كان الفضول أو مجرد الحنين لماضيها.. حسمت أمرها في النهاية، وضغطت بإصبعها على زر الرد..

ـ صباحك جميل يا ست الستات.

ـ أهلاً يا هاني، أخبارك؟

ـ بخير، ما دمت سمعت صوتك بخير.

ـ ربنا يكرمك.

ـ المهم، أريد الاطمئنان على أحوالك.

ـ الحمد لله.

ـ وست الكل الصغيرة، حياة هانم؟

ـ ادع لها يا هاني.

ـ أدعو لها بالشفاء مع كل شروق.

ـ أشعر أن الله يعاقبني فيها.

ـ لا تقولي مثل ذلك، الله رحيم.

ـ لا أرجو سوى رحمته.

ـ ما أخبار معتز بك؟

ـ معتز بخير، لكن ليست عادتك يا هاني.. هل تريد شيئًا؟!

ـ لا شيء، لا شيء يا ست الكل.. إذا احتجتني فأنا موجود.

ـ أصيل يا هاني.

أنهت «دُنيا» المكالمة، واستعرت شكوكها من جديد.. لماذا يهاتفها «هاني»؟! ولماذا هذه اللهجة الغامضة في حديثه؟! كانت تشعر أنه يريد إخبارها أمرًا ما، نعم فهي تعرفه جيدًا.. وكانت تعلم أيضا أن «معتز» ما زال مواظبًا على السهر في اللوتس.. لم تنتظر كثيرًا وتوجهت نحو غرفة

النوم، دخلتها بخطوات حذرة خشية أن يستيقظ «معتز».. فتشت في أغراضه جيدًا فلم تجد شيئًا.. لمحت هاتفه المحمول على الكومود بجوار الفراش، مدت يدها تلتقطه بخفة وحذر.. ثم تسللت بهدوء مغادرة الغرفة، عائدة إلى مكانها فوق المقعد في الصالة.. أخذت تحاول فتح الهاتف المحمول، لكنه في كل مرة كان يأبى الانصياع لرغبتها، يخبرها بضرورة كتابة الرقم السري.. شحذت أفكارها وأعملت كل ذكائها حتى توصلت له، تاريخ ميلاد «حياة».. دخلت على مكالماته فلم تجد شيئًا مريبًا.. أرقام بعض زملائه وأصدقائه من الكتاب والمخرجين والمنتجين، أرقاما مجهولة ليس لها اسم.. كادت تيأس حتى فتحت ملف الرسائل، اتسعت عيناها وشهقت في فزع حين قرأت رسالة «داليا»..

كان اسمها محفورًا في ذاكرتها جيدًا، كثيرًا ما كان «معتز» يصرخ باسمها في أثناء نومه.. تحملت ذلك مرارًا حتى واجهته بالأمر في أحد الأيام، أخبرها أنها مجرد ذكرى قديمة أصبحت باهتة بمرور الزمن..

أفاقت من شرودها على صوت رسالة جديدة.. قرأتها ثم انهارت باكية..

«لعلك لن تصدقني إذا أخبرتك أن الأمس كان يومًا مختلفًا، أعادني للحياة مرة أخرى.. في انتظار لقائك.. داليا»..

* * *

(١٦)

عند دخولهما المكان نظر الحضور بشكل تلقائي نحوهما، شعرت «داليا» بارتباك شديد.. لم تكن معتادة على الوجود في مكان علانية تتأبط ذراع «معتز».. ما زاد من ارتباكها هو أن بعض الرجال أطالوا النظر إليها، وتفحصت النساء كل بوصة في جسدها الممشوق.. كانت معتادة على مثل تلك النظرات، لكن في حقيقة الأمر، وجودها مع «معتز» كان هو ما يربكها..

جابت ببصرها في المكان، الحضور بدت علامات الثراء واضحة عليهم.. رجال في منتصف العمر، ونساء أصغر سنًا يضعن على وجوههن كميات مبالغًا فيها من مساحيق التجميل.. ظهر على البعض فارق العمر الكبير بين الرجل والمرأة المرافقة له..

حاولت «داليا» الهرب من هذه الأفكار فزادت من قوة قبضتها على ذراع «معتز».. التفت نحوها باسمًا ثم ربت بكفه على ذراعها.. كان قد أخبرها عن هذه الحفلة الخاصة التي يقيمها بعض أصدقائه،

طلب منها مرافقته.. ترددت قليلاً في البداية، ولكنها وجدتها فرصة سانحة للتقرب منه وتنفيذ مخططها الأصلي.. خصوصًا بعد أن رضخ «وليد» أخيرا، وطلقها..

سحبها «معتز» من ذراعها لطرف هادئ في المكان، مسح بكفه على خدها ثم قال بحنان:

ـ كم أنا محظوظ، تبدين رائعة الليلة..

لم تعقب وإن توردت وجنتاها بلون وردي خفيف فاستطرد:

ـ كل الحضور التفّت أعناقهم ليتمتعوا بالنظر إليك.

ـ مجرد رجال، أنت تعلم أن أمثالهم حمقى.

ـ ماذا بإمكان أي شخص أن يفعل حين يصدمه جمالك؟!

كان مزاجه رائقًا هذه الليلة.. أحاطها بذراعه وقبّل خدها، أحست «داليا» برعشة واقشعر جسدها.. تمنت أن يكونا في البيت الآن، تقضي ليلتها معه، نائمة في حضنه الدافئ.. ربما تعترف له حينها، تقبّل يديه وتتوسل إليه أن يسامحها.. فجأة تذكرت كل شيء، وشعرت بالحنق والغضب يتملكان منها.. فقالت بنبرة مستفزة:

ـ هل ستلاحق الفتيات الصغيرات عندما تشيب؟

نظر «معتز» نحوها في استغراب:

ـ لماذا تقولين ذلك الآن؟!

ـ فقط المنظر من حولي هو ما أثار فضولي.

جاب «معتز» ببصره في وجوه الحاضرين ثم مط شفتيه، وتجاهل الرد عليها.. ولكنها استطردت بحدة:

ـ لم تجب عن السؤال!

نظر نحوها متعجبًا، كان وجهها محتقنًا.. حاول تلطيف الأجواء فقال مداعبًا:

ـ بالطبع سأكون مثلهم.

ـ ستكون أحمق إذن؟!

بدا «معتز» غير مستوعب لما يجري:

ـ ما الأمر؟

ـ لا شيء.

أدركت أنها تبالغ إلى حد كبير، وشعر هو بالشفقة عليها فقال:

ـ إذا تزوجتني فلن ألاحق غيرك.

ـ لا تخدعني.

ـ هي الحقيقة.

ـ بل تكذب.

تعجبت «داليا» من نفسها ومن حدة حديثها، لم تكن تشعر بالغيرة.. فقط كانت تحاول اختلاق عراك بلا سبب.. تمنت في هذه اللحظة لو أن شيئًا مما حدث في الماضي لم يحدث، تمنت لو تتمكن من إيقاف عجلة انتقامها الدائرة في سرعة مخيفة.. فقط تمنت..

همست:

ـ لنذهب إلى البيت.

حدق «معتز» في وجهها ثم قال:

ـ ماذا؟!

اقتربت منه وتعلقت بذراعه ثم همست مجددًا:

ـ قلت لنذهب إلى البيت.

ـ لماذا؟

أجابت والدموع تلمع في عينيها:

ـ أريد أن نكون وحدنا، أريد أن أحتضنك.

ـ كما تشائين.

قالها بهدوء مستسلمًا لرغبتها، ووقف يلملم حاجياته ثم توقف فجأة كأنه تذكر شيئًا:

ـ ولكن أي بيت؟

ـ بيتي أنا.

أنهت عبارتها وفرت دمعة من عينها مسحتها سريعًا، ثم قالت:

ـ أنت ملاكي الحارس.

ـ وأنتِ نعيمي الدائم.

تعلقت بذراعه ثم أسرعا إلى الخارج، كانت ليلة باردة ولكنها هادئة.. امتزج صوت الرياح مع أصوات أوراق الشجر تحت ضوء القمر الخافت بينما كانت الميني كوبر الحمراء تنهب الطريق نحو منزل «داليا»..

حين دخلا إلى البيت لم تشعل «داليا» النور، تعجب «معتز» من تصرفها الغريب ولكنه لم يعلق.. تبعها بخطوات بطيئة، كالمنوَّم مغناطيسيًا، إلى الصالون.. رغم مجيئه من قبل كثيرًا فيما مضى كان يشعر بالغربة، ربما كان قلقًا بعد أن أحس بحضور قوي لأمها كأنها ما زالت حية ترزق..

صار جو الغرفة باردًا بعد أن فتحت «داليا» كل النوافذ، تسلل ضوء خفيف للغرفة.. سرت البرودة في جسده فتكوم فوق الأريكة التي ما زال يذكرها جيدًا، انتظر أن تجلس «داليا» إلى جواره كما اعتادت أن تفعل.. لكنها توجهت نحو البيانو الخاص بها، لفترة وقفت أمامه في ثبات.. ثم رفعت غطاءه برفق، نظرت نحو أصابعه طويلاً كأن حديثًا حميميًا يدور بينهما.. وأخيرا جلست ببطء أمام البيانو، داعبت أناملها الرقيقة أصابعه برفق ولين.. فانسابت النغمات في الأرجاء رائقة حانية، وامتلأ الجو سكينة ووداعة..

أغمض «معتز» عينيه مستمتعًا بروعة العزف، كانت مقطوعة «خلي بالك من عقلك» لعمر خيرت.. تعجب «معتز» لاختيارها هذه المقطوعة بالذات، حدث نفسه دون أن يفتح عينيه: «لا بد أنني فقدت عقلي!»..

كانت «داليا» متوحدة تمامًا مع البيانو، كأنها غائبة عن الوجود.. لم يشغل بالها على الإطلاق وجود «معتز»؛ فلم توجه له كلمة واحدة أو تنظر نحوه.. كانت تتوقف عن العزف أحيانا، وتجلس بلا حراك

تقريبًا قبل أن تستأنف من جديد.. تعجب «معتز» من قدرتها على رؤية أصابع البيانو رغم الظلام المسيطر على الغرفة، كان الأمر برمته كمعجزة حية يشهدها بنفسه..

وأخيرا توقفت «داليا» عن العزف، سمع «معتز» صوت غطاء البيانو يغلق برفق تمامًا كما رفعته.. فتح عينيه ببطء؛ فأربكته نظراتها التي أحسها مصوبة نحوه رغم الظلام.. تحرك من مكانه ليشعل النور، لكنه تسمر حين سمع صوتها الدافئ:

ـ لا تفعل.

اعتراه التوتر وسألها:

ـ لماذا؟!

تجاهلت الرد عليه، وقامت واقفة في صمت.. اقتربت منه بخطوات هادئة، صارا قريبين إلى الدرجة التي كاد معها جسداهما يتلامسان.. أصبح بإمكانه الشعور بلسعة أنفاسها اللاهثة، وتمييز عينيها اللتين كانتا تلمعان بشدة رغم الظلام.. انتابته رغبة مفاجئة في الابتعاد عنها، لكن قدميه خانتاه وتسمرتا في الأرض.. كاد يقسم إنه يراها للمرة الأولى هذه الليلة، تعجب من هذا الشعور الذي ولد لديه أحاسيس لم يجربها منذ أن كان مراهقًا عديم الخبرة.. تراجع إلى الوراء عدة خطوات حتى لامس ظهره الحائط، واستمرت هي في تقدمها نحوه.. كان يخشى من تعدي الحدود التي إن جاوزها لن يمكنه العودة مرة أخرى.. شعر بأنه أسير قوى مجهولة تستعبده، تأمره فيطيع دون أدنى مقاومة..

التصقت به ومزقت قميصه؛ فشعر بلهيب يستعر في جوفه.. أحس

بأنفاسها تتلاحق، وجسدها يرتعش.. احتضنته بقوة كأنها تلوذ به وتختبئ فيه؛ فاستسلم لنداء عاطفة كانت أقوى من أي شيء.. كان آخر ما سمعه صوتها يهمس في أذنه بنبرة دافئة:

ـ معتز!

* * *

(١٧)

أن تستيقظ في الصباح وبرفقتك إحساس شنيع بالذنب، أسوأ ما يمكن أن تصادفه في بداية اليوم.. فقد نمت غارقًا تحت وطأة ما ارتكبته، شعرت به حيًا متجسدًا أمامك يتكرر في تواصل أبدي بلا توقف.. ثم قبل أن تفتح عينيك يبدأ ضميرك في اعتصارك؛ فتتمنى لو أنك ما زلت نائمًا.. تستقر أسوأ المشاعر بداخلك الواحد تلو الآخر، تعاني من الشعور بالذنب وألم الضمير وتأنيبه.. في الصباح تتواجه مع خطيئة الليلة الماضية، تحاسب نفسك فيأتي الندم مؤلمًا موجعًا.. وتتمنى لو تمكنت من الإفصاح عن ذنبك، إعلان ندمك.. وتسعى يائسًا للخلاص من هذا الشعور المريع..

كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة صباحًا، و«معتز» يتقلب في الفراش منذ أكثر من ساعة تقريبًا.. تنهشه مشاعر الندم، وتلتهمه الحسرة، لم يكن يتحمل فكرة أن يتسبب برعونته في إيذاء «داليا» مرة أخرى.. يرفض تصديق أن بقايا الليلة الماضية، العالقة بإصرار في ذهنه، كانت

حقيقة.. يجاهد لإقناع نفسه بأن ما حدث كان حلمًا.. ولكن شيطانه كان يأبى مغادرته؛ فأخذ يكيل له الأسئلة الموجعة.. لماذا إذن هو موجود في شقة «داليا»؟! لماذا ينام بجوارها على فراش أمها؟! بل ولماذا لا يزال عاريًا حتى الآن؟!

سيطر عليه إحساس غير معتاد بالخوف، مجرد الشعور به دليل كافٍ على أن العالم أصبح مكانًا غير آمن.. ليس هو المكان الذي يظن الجميع أنهم يعرفونه ويعتادونه، هناك أبواب خفية في كل مكان، تؤدي إلى عوالم وأبعاد أخرى.. يتم إغراؤك واستدراجك إلى مكائد متعددة إلى أن تخون نفسك، تخدع ذاتك.. تستعبدك قوى مجهولة فتفعل أشياء كنت قد أقسمت ألا تفعلها، وتقول كلمات كنت على يقين بأنك لن تنطقها.. ومصدر هذه القوى داخلك، في بذورك الخاصة..

اشتعل إحساسه بالذنب، وكان يخامره أيضا شعور بالشفقة على «داليا».. لم يغفر لنفسه أبدًا ما حدث معها قديمًا.. لكن شيطانه عاجله من جديد بسؤال:

«وما ذنبك في كل ما جرى؟! ألم تقم هي بإغوائك؟!»

هدأت نفسه قليلاً، واستراحت لهذا التفسير.. التفت إلى الفراش بجواره، إلى ظهرها العاري، كانت مستغرقة في سبات عميق.. كان مؤمنًا بأن من حق أي شخص أن يفعل ما يشاء، ما لم يكن في فعله هذا تعدٍّ على حق شخص آخر.. وكان أيضا على يقين بأن المرأة الجميلة لديها القدرة على التصرف بشكل سيئ، غالبًا بدرجة تفوق غيرها من النساء الأقل جمالاً.. أخذ يسوق لنفسه الأعذار والمبررات الواحد تلو الآخر..

ومن حسن الحظ أننا خلقنا ولدينا هذه القدرة المتفردة على احتمال أنفسنا أكثر من غيرنا.. لذا لا تستمر مأساتنا طويلاً؛ فنأخذ بكل السبل والوسائل حتى نجد العذر المناسب الذي يمكننا من مواصلة حياتنا..

«لم أخطئ في شيء.. الحياة ظالمة؛ حرمتني ما أريد ومنحتني ما لا أريد»..

هكذا تمتم في سخط، وهو يغادر الفراش باحثًا عن ملابسه.. قرر وقتها ألا يراها مرة أخرى، بدا له ذلك حلاً مثاليًا.. فما ذنبها لترتبط بمن هو مثله، متهور أحمق لا يعلم ماذا يريد.. لعل في ذلك ظلمًا لها، ولكن ماذا في ذلك؟ أليس العالم مليئًا بالظلم؟!

نظر نحوها نظرة أخيرة، وتمتم بحسرة:

ـ آسف يا داليا، سامحيني.

غادر الشقة في هدوء، وركب سيارته الحمراء.. كان الوقت باكرًا، والشارع يكاد يخلو من المارة تقريبًا.. فجأة فتح باب السيارة، وركب إلى جواره شخص يراه للمرة الأولى..

ـ صباح الخير، أنا المهندس وليد زوج داليا.

ألجمته المفاجأة ولكنه تمالك نفسه سريعًا ثم قال:

ـ زوجها؟!

ـ كنت زوجها، لكنها ما زالت في فترة العدة.

ـ ماذا تريد؟

رمقه «وليد» متفحصًا لوهلة ثم قال من بين ابتسامة صفراء:

ـ لا شيء، فقط أردت أن أتعرف على الرجل الذي سرق زوجتي.

بدا على وجه «معتز» شيء من التوتر، لكنه نجح في مداراته سريعًا.. أشعل سيجارة ثم قال وهو ينفث دخانها بعصبية:

ـ يبدو أن هناك سوء تفاهم، أنا لم أسرق...

قاطعه «وليد»:

ـ لا داعي للقلق، لست هنا لافتعال مشكلة.

ـ إذن؟!

ـ فقط أردت أن أحذرك.

ـ تحذرني؟!

ـ من داليا.

ـ داليا؟!

ـ نعم، فالتي تترك زوجها لأجل نزوة، ستفعل ما هو أكثر مع عشيقها.

أنهى «وليد» عبارته ثم غادر السيارة على الفور، وصفع بابها خلفه بعنف.. بقي «معتز» متسمرًا في مكانه، كانت كلمات التحذير الذي تلقاه تدوي في ذهنه في قوة.. هز رأسه بعنف طاردًا عنه كل ما يستدعي قلقه، أدار محرك السيارة وتحرك بها إلى المعادي..

دخل إلى غرفة نومه وأضاء النور، كانت «دُنيا» جالسة على كرسي

في أقصى اليمين.. عيناها حمراوان وجفناها منتفخان، تبدو على ملامحها علامات إرهاق شديد.. حياها بلا مبالاة، ولكنها لم ترد.. نظرت نحوه لوهلة ثم قالت:

ـ طلعت الشمس!

ـ فلتطلع.

ـ هل تأخرك كل ليلة أمر طبيعي؟!

ـ لا تقلقي، يجب أن تنامي قليلاً.

قالها ثم تشاغل بخلع ملابسه، لكنها استطردت:

ـ لماذا تهرب؟!

ـ أهرب!

ـ لا تدعي عدم الفهم، أرجوك أرحني واعترف.

ـ اعترف بأي شيء؟!

ـ بأنك لم تعد أنت.

ـ حقًا؟!

صمتت «دُنيا» قليلاً وانهمرت دموعها حين قالت:

ـ يكاد الحزن يقتلني.

ـ وأنا أموت كل يوم مئة مرة.

تهدج صوتها حين صرخت:

ـ لماذا؟ هل قصرت معك في شيء.

قرن حاجبيه في ضيق ثم قال:

ـ أُفٍّ لهذا الحديث المكرر، ألا تملين؟!

ـ أهذا هو السبب؟! أمللت؟!

ـ لا أعرف سببًا محددًا.

ـ لكني أعرف.

ـ يبدو أنك مصرة على النهاية.

ـ داليا، أعرف كل شيء.

نظر «معتز» نحوها طويلاً ثم قال:

ـ لا أعرف ماذا تقصدين؟

ـ لم يعد هناك داع للإنكار.

ـ يبدو أنك فقدت عقلك!

ـ رأيت رسائلها لك، شاهدتك معها أكثر من مرة.

ـ صدقيني، لم يحدث بيننا...

قاطعته بحدة:

ـ فات الأوان، سآخذ حياة وأرحل.

ـ أين تذهبين؟!

ـ هذا ليس شأنك.

ـ هذا بيتك، سأرحل أنا.

* * *

(١٨)

وحيدًا وجدت نفسي واقفًا وسط بركة غير عميقة.. تغطي المياة الآسنة جسدي حتى خصري.. ترتفع المياه أحيانا حتى تكاد تلامس ذقني.. شفتاي متشققتان وألم فظيع يكاد يمزقهما، لساني يلهث من شدة العطش.. اشتد بي الظمأ فملت بوجهي قليلاً إلى الأمام، فتحت فمي محاولاً ملأه بالماء.. لكن الماء انحسر بسرعة شديدة حتى اختفى تمامًا، وظهر قاع البركة.. لم أعد أرى سوى الطمي الذي يغطي قدمي الحافيتين.. رفعت وجهي إلى الأعلى في حسرة ويأس.. قبل أن أفعل عادت المياه تملأ البركة في سرعة مذهلة، واصلت الارتفاع حتى غمرت خصري.. ضممت أصابع يدي أغترف الماء بكفي، رفعتهما نحو فمي في لهفة وشوق.. لكن الماء تسرب بسرعة من بين أصابعي، ووصلت كفاي إلى فمي خاويتين من نقطة ماء.. مسحت بأصابعي المبتلة فوق شفتي المتشققتين؛ فازداد عطشي وظمأي..

صوبت بصري ناحية اليمين، وجدت بالقرب من البركة التي أقف

مغمورًا فيها شجرة ضخمة باسقة.. محملة فروعها بثمار عديدة، مختلفة ألوانها تسر الناظرين.. تفاح وعنب وتين.. تتدلى منها هذه الثمار الناضجة حتى تكاد تصل لمستوى كتفي، وتأخذ في الاقتراب مني أكثر حتى تصبح في متناول يدي.. سمعت صوت قرقرة بطني، وشعرت بتمزق أمعائي من شدة الجوع.. مددت يدي نحو الشجرة في شوق ولهفة، محاولاً قطف ثمارها.. لكن ريحًا قوية هبت فجأة، قذفت بالثمار بعيدًا عني، وأبعدت فروع الشجرة.. أعدت يدي إلى جانبي في ألم وحسرة، أصبحت أكثر جوعًا من ذي قبل..

حاولت أن أصرخ مستنجدًا، لكن صوتي لم يطاوعني.. رفعت رأسي إلى الأعلى سائلاً العون والمدد.. فرأيت ما جمد الدماء في عروقي، وشعرت بخوف وفزع لم أختبرهما من قبل.. كانت البركة التي أقف فيها عند حافة سفح جبل عال، شاهق شديد الانحدار.. على قمته ترتكز صخرة ضخمة في وضع مائل غير ثابت، أخذت في الاهتزاز بقوة كأنها توشك على السقوط فوق رأسي.. هبت الريح العاتية مرة أخرى؛ فازداد اهتزاز الصخرة.. سمعت صوت نبضي يرتفع، وخشيت أن ينخلع قلبي من مكانه.. لكني رأيت الصخرة تثبت في مكانها فجأة، ثم تتدحرج بسرعة إلى الجهة الأخرى.. تنفست الصعداء بعد أن سرت الطمأنينة في نفسي قدرًا يسيرًا.. سمعت صوتًا يصرخ من أعلى قمة الجبل:

ـ إنه الخوف يا صديقي، ألم أقل لك؟

نظرت نحو مصدر الصوت، كان «سيسيفوس» يرفع كتفيه في استسلام ويأس.. ثم يتحرك هابطًا الجبل الشاهق؛ ليبدأ رحلة صعوده من جديد ويتركني وحدي مغمورًا وسط هذا العذاب المقيم.. لم أشعر بهذا الخوف من قبل، ولا بمثل هذا اليأس والاستسلام..

ـ معتز، معتز.. اتبعني.

التفتُّ ناحية الصوت، كان أبي.. تمامًا كما أذكره مرتديًا كامل ملابسه، متأنقًا كعادته.. حركت قدمي فاستجابت بغرابة شديدة، وجدتني قادرًا على الحركة مرة أخرى.. تبعت خطواته السريعة مذهولاً، رأيته يفرك قبضتيه كأنه يبحث عن شيء أو يفكر في أمر ما.. ملامحه الغاضبة تأكدت منها عندما أخذ ينظر نحوي كل فينة وأخرى.. قلت له هامسًا:

ـ أما زلت غاضبًا مني؟

تجاهلني تمامًا ولم يجب، استمر في سيره كأني لم أقل شيئًا.. أسرعت قليلاً حتى اقتربت منه، قلت:

ـ أنا آسف، سامحني أرجوك.

توقف عن المشي فجأة، ولم يرد.. نظر نحوي فلمحت في عينيه شفقة، ثم أشار بيده ناحية ممر بدا مظلمًا.. سرت في جسدي رجفة قوية؛ فقلت له:

ـ أنا خائف، رافقني أرجوك.

للمرة الأولى ألمح نظرة حب في عينيه، وللمرة الثانية أرى دموعه تسيل على خديه.. ربت على كتفي بحنان، وأشار ناحية الممر المظلم من جديد ثم استدار راحلاً..

دخلت إلى الممر بخطوات مرتعشة، كان قلبي مقبوضًا بشكل مخيف.. تلمست طريقي بصعوبة وسط الظلام الحالك.. وصلت في النهاية إلى بوابة عملاقة، تحسستها بأصابعي فعرفت أنها خشبية مزخرفة بنقوش لم أستطع تفسيرها.. دققت بكفي على البوابة، كان صوت الدقات

مكتومًا.. انفتحت البوابة مصدرة صوتًا عاليًا، صريرًا مرتفعًا اقشعر له جسدي.. من خلفها ظهر بصيص من الضوء، تمكنت بسببه من رؤية الشخص الذي فتح لي البوابة.. كان رجلاً عملاقًا مفتول العضلات، له وجه ابن آوى.. أخذ يتفرس في ملامحي لفترة، وأخيرا دعاني للدخول بهزة خفيفة من رأسه الضخم..

وجدت نفسي في ردهة هائلة الحجم، شديدة الاتساع.. مسكونة بظل غريب، يتحول ما بين العتمة والضياء بطريقة عجيبة لم أرها من قبل.. في نهايتها تظهر أدراج رخامية، وممر يبدو عميقًا.. هربت من وجه ابن آوى المرعب، دخلت سريعًا في الممر.. هالني ما رأيته منقوشًا على سقفه من رسومات وزخرفة، وجوه ملائكية يشع وجهها نورًا، وأشكال شيطانية بثت في روحي الخوف.. كان المكان بأكمله كمعبد قديم غارق في الظلام.. إلى أن قادتني قدماي إلى صالة لها ثمانية أضلاع، غارقة في نور ساطع.. متاهة هائلة من الأروقة والأرفف العالية الممتلئة بالكتب، سلالم ومنصات ودعائم.. مكتبة هائلة، شديدة الضخامة.. بالغة الإعجاز في بنائها وهندستها..

فغرت فمي مدهوشًا مما أرى، كان المكان أشبه بخلية للنحل.. أناس كثر يتحركون في كل مكان بهمة ونشاط.. بعض الوجوه عرفتها، وغيرها لم أعرفها.. كان الكل منشغلاً بمطالعة الكتب، منهمكًا في القراءة إلى درجة أن لم يلحظوا وجودي بينهم.. رأيت أحدهم يغلق الكتاب ثم يحمله بين ذراعيه فرحًا، يصعد سلمًا ليضع الكتاب في موضع معين من أحد الرفوف الشاهقة.. يتجه بعدها إلى باب في الجهة اليمنى من الصالة.. ثم رأيت آخر يغلق الكتاب في غضب، وعلى وجهه علامات

الحزن.. يضع الكتاب في موضع من أحد الرفوف، ثم يتجه إلى باب آخر في الجهة اليسرى من الصالة.. وشاهدت كثيرين يحملون كتبهم فوق رؤوسهم، وعلى وجوههم تبدت الحيرة.. يقفون لا يعرفون ماذا يفعلون.. أفقت من شرودي على وكزة قوية في ظهري، التفت مفزوعًا.. كان وجه ابن آوى ينظر لي شزرًا، تسمرت في مكاني ولم أقدر على الحراك.. سمعت صوته يخرج غليظًا مرعبًا حين قال:

ـ خذ كتابك.

لم أجرؤ على سؤاله أو حتى الاستفهام عن مقصده، تحركت من فوري أفتش بين أرفف الكتب.. تجولت في هذه المتاهة وتنفست عبق تلك الأوراق القديمة، تركت يدي تلامس ظهر الكتب المرتبة في صفوف طويلة، معتمدًا في خياري على حاسة اللمس.. أخذت أتنقل بين الأروقة والرفوف التي تحتوي على ملايين الكتب والمجلدات، كنت أشعر أنها تعرف عني أكثر مما أعرف عن نفسي.. فجأة تسمرت يدي فوق ظهر أحد الكتب، جاءني يقين أنه الكتاب المنشود.. سحبته من مكانه، غلافه سميك أسود اللون.. كان منقوشًا عليه حروفًا لم أستطع قراءتها، تحسستها برؤوس أصابعي.. فتمكنت من قراءتها في صمت.. كان منقوشًا على الغلاف اسمي «معتز الراوي»..

حاولت فتح الكتاب كما شاهدت فعل الناس من قبلي، لكنه استعصى عليّ.. جلت ببصري في المكان طلبًا للمساعدة، لكن نظرات ابن آوى المرعبة جعلتني أتوقف.. رأيته يومئ برأسه ناحية سلم في الجهة الأخرى، توجهت من فوري نحوه.. ارتقيته حتى بلغت منزلة عالية بالقرب من أحد الأرفف، ووجدت مكانًا فارغًا.. وضعت الكتاب فيه، وحين

شرعت في الهبوط فوجئت بالكتاب يهتز في مكانه بعنف.. حاولت أن أمنع سقوطه، لكني فشلت.. ومع محاولاتي الفاشلة انزلقت قدمي، وسقطت من هذا الارتفاع الشاهق..

ارتطم رأسي بقوة في الأرضية الرخامية، ودارت الدنيا من حولي بشدة.. بدأ الضباب يكتنف عقلي، رأيت صورًا كثيرة متلاحقة، وجوهًا عديدة تتحلق من حولي.. رأيت أبي وأمي، حياة ودُنيا، حتى داليا كانت واقفة فوق رأسي.. كنت أسمع ضجيجًا مرتفعًا، أصواتا كثيرة متداخلة.. و...

«سمعتهم يقولون إن هذا هو آخر يوم لي هنا..»

* * *

الموت سيئ..
ولكن الأسوأ هو حياة لا حياة فيها..

(١٩)

«كم أنت محظوظ يا معتز!»..

كنت أعرف نبرة هذا الصوت جيدًا، لكن تعبي وإرهاقي حالا دون أن أتمكن من معرفة صاحبه.. قلت وأنا أشعر بضعف شديد:

ـ من أنت؟!

ـ العقيد أسامة، لا تعرفني يا صديقي؟!

«الله يلعنك، أما زلت حيًا»..

غمغمت في سري، لكني تمالكت أعصابي سريعًا ثم قلت بترحاب زائف:

ـ أهلاً سيادة العقيد.

ـ أقلقتنا عليك.

ـ أنا بخير.

رنت ضحكته السمجة في أذني، وسمعته يقول:

ـ ألم أقل إنك محظوظ؟!

لم أتمالك نفسي أكثر من ذلك فقلت محتدًا:

ـ عن أي حظ تتحدث؟!

لم يجب العقيد «أسامة الجيار» على الفور، التزم الصمت لفترة.. ثم سمعت صوته يقول بصرامة وجدية:

ـ لا عليك، نحن لا نتخلى عن رجالنا أبدًا.

لم أفهم قصده، لكني لم أرغب في الاستفسار.. واستطرد هو قائلاً بنفس النبرة الجادة:

ـ القضية أغلقت نهائيًا، تم التخلص من محضر مستشفى السويس، وحادثة سيارتك كانت قضاءً وقدرًا.

ـ لا أفهم؟!

ـ لا تهتم الآن، فقط كن حريصًا على صحتك فما زال أمامنا عمل كثير.

ـ ماذا تقصد؟!

ـ علمت أنك ستخرج من المستشفى اليوم، سأمر عليك بعد يومين في البيت.

سمعت وقع قدميه حين غادر الغرفة، تركني وحدي صريع الحيرة والألم.. كان ذهني مشوشًا لدرجة كبيرة، لم أتمكن معها من تذكر كل

شيء.. فقط مجرد ومضات خاطفة كانت تلمع في عقلي.. أصوات كثيرة متداخلة، غير واضحة لم أتبين منها سوى القليل.. صوت صراخ «دُنيا» وصياح «داليا»، بكاء «حياة».. صوت موتور الميني كوبر يزعق من السرعة المخيفة التي تنهب بها أسفلت الطريق.. صوت ارتطام مريع بالحاجز الإسمنتي، وانقلاب السيارة ثم ظلام تام..

ـ أرى أنك أحسن حالاً.

«ما بال الجميع يروننني في خير حال؟!»..

حدثت نفسي في حنق، وأنا ألتفت ناحية مصدر الصوت.. انتبهت على كف ناعمة تربت على يدي ثم تصافحني في ود..

ـ أنا الدكتورة شيرين، كنت مسؤولة عنك طوال فترة الغيبوبة.

ـ يبدو أنك بذلت جهدًا خارقًا.

ـ لم أفعل شيئًا، لكن يبدو أن القدر قد كتب لك عمرًا جديدًا.

ـ أشكرك على أية حال.

ساد الصمت بيننا برهة ثم سمعت صوت خطواتها تغادر الغرفة.. هززت رأسي مستسلمًا، لم أكن مكترثًا بشيء، ربما لم أعد راغبًا في الحياة بعد كل ما حدث.. حتى هذا السواد الذي يحيط بي من كل جانب صار صاحبًا لي، لم أعد أمقته.. تداعت الأحداث في عقلي وبدأت تتشكل أمامي كأنها تحدث من جديد..

تذكرت ذلك اليوم البعيد، كلا لم يكن بعيدًا.. حقيقة لم أعد قادرًا

على تحديد تاريخه؛ فأنا لا أعلم كم لبثت في الغيبوبة.. في ذلك اليوم كنت قد ثملت إلى درجة كبيرة، لم ألحظ معها اختفاء هاتفي المحمول.. عدت إلى البيت بعد فترة للملمة حاجياتي، وللبحث عن هاتفي.. لم أجد أحدًا في المنزل، ابتسمت بعد أن تخيلت وجه «دُنيا» الغاضب.. وهي تضم حاجبيها وتزم شفتيها، وتصرخ كعادتها مؤخرًا:

«كم الساعة الآن؟!»..

دخلت إلى غرفة النوم، تنفست الصعداء وحمدت السماء على رحمتها بعد أن رأيت هاتفي فوق الكومود.. ألقيت جسدي المنهك فوق الفراش، سمعت أزيز اهتزاز هاتفي المحمول «لا بد أني قد نسيته على الوضع الصامت».. تناولته من فوق الكومود متأففًا، كانت مكالمة فائتة من «دُنيا».. نظرت في سجل المكالمات فوجدت أن «داليا» أيضا قد اتصلت منذ نحو ساعتين.. طلبتها على الفور، لكن جاءني ذلك الصوت الآلي البارد يخبرني أن هاتفها ربما يكون مغلقًا.. وجدت إشارة تومض أعلى الشاشة، بريدي الصوتي يحمل عدة رسائل.. كان أولها من «داليا»، فتحتها على الفور.. جاءني صوتها يقول في فرح:

لم أصدق رسالتك المفرحة..

سأوافيك في الشاليه على الفور..

انتفضت جالسًا فوق الفراش، وحاولت أن أجمع شتات ذهني.. تكاثرت علامات الاستفهام في عقلي.. عن أي رسالة تتحدث؟! وأي شاليه تقصد؟!

«لم أرسل لهذه الحمقاء شيئًا!»..

حدثت نفسي ثم أخذت أتفحص ملف رسائلي، أخذني الشك بأني ربما أرسلت لها شيئًا لا أذكره الآن من أثر الخمر، لم أجد شيئًا!

اهتز المحمول بين يدي، ولمعت شاشته باسم «دُنيا».. ضغطت على زر الإجابة في غضب، وأجبت في حدة:

ـ نعم.

ـ نحن في السخنة.

ـ سخنة؟!

ـ شاليه العين السخنة.

ـ ماذا تفعلين هناك في مثل هذا الوقت؟!

ـ لست وحدي.

ـ دُنيا، لا صبر عندي لهذه الترهات.

ـ داليا معي.

صمت لوهلة أحاول استيعاب الموقف، ثم قلت:

ـ ماذا تريدين بالضبط؟!

ـ نحن في انتظارك، ربما نتمكن من حل الأمور بطريقة متحضرة.

أنهت عبارتها ثم أغلقت الخط في وجهي.. أخذت أتحرك في الغرفة

كالمجنون، صداع فظيع يكاد يفتك برأسي.. فطنت إلى ما فعلته «دنيا»، لا بد أنها أرسلت رسالة إلى «داليا» من هاتفي ثم مسحتها.. زفرت في غضب وأنا أدفس المحمول في جيبي، وهرولت مغادرًا الشقة.. ضغطت بقدمي على دواسة البنزين حتى كادت تلامس أرضية السيارة، فانطلق الموتور يزأر ناهبًا طريق القاهرة ـ العين السخنة.. كانت الأفكار السوداء تتقافز في رأسي، والهواجس المرعبة تصور لي مشاهد بغيضة..

وصلت في أقل من ساعة، وفتحت الباب بعنف.. وجدتها جالستين في الردهة، متقابلتين في تحد أمام الباب بالضبط.. نظرتا نحوي في برود، وللمرة الأولى يتسرب الخوف إلى قلبي منهما.. كان في نظراتهما شيء لم أعهده من قبل، كأنهما كانتا جمرتين متقدتين..

بادرتني «دُنيا» بسخرية:

ـ لم تأخذ وقتًا طويلاً، لعله العشق هو الذي طوى كل هذه المسافة.

تأملت وجهها لبرهة، كان ينطق بكل آيات الكره والحقد.. تحاملت على نفسي، وقلت متصنعًا الهدوء:

ـ ماذا تريدين يا دُنيا؟

ـ لا شيء، لقد نلت كل ما أردت.

قالت «داليا» بتحد:

ـ لم إذن هذا الاجتماع السخيف؟!

حدجتها «دُنيا» بنظرة نارية ثم تجاهلتها كأنها لم تقل شيئًا، التفتت نحوي وقالت:

ـ ألن تجلس قليلاً، ربما تحتاج للراحة من عناء السفر.

لم أفهم غرضها من هذه المواجهة البغيضة، لكني أطعتها خشية قيامها بما لا تحمد عقباه.. كانت عيناها تلمعان بشكل غريب، شفتاها ترتعشان بصورة لافتة.. بقيت على حالها هذه فترة، ثم قامت بعدها متوجهة نحو المطبخ..

غابت قليلاً ثم عادت تحمل صينية، فوقها ثلاثة أكواب من الشاي.. وضعتها فوق منضدة قريبة ثم قالت وهي تناول «داليا» كوبًا:

ـ حتى لا يقال إننا لا نفهم في أصول الضيافة.

تناولت «داليا» الكوب بحذر ثم وضعته على المنضدة، لكن «دُنيا» رمقتها في غضب.. فتناولت «داليا» الكوب ونظرت نحوي في قلق، أومأت لها برأسي موافقًا.. وقفت «دُنيا» في مكانها تتأمل «داليا» وهي ترشف الشاي الساخن، ثم التفتت نحوي وناولتني كوبًا آخر.. وأخيرا جلست تشرب من كوبها في استمتاع..

كان الصمت محيطًا بنا، لا يجرؤ أحدنا على خرقه.. حتى قطعته «دُنيا» بعد حين:

ـ أظن من الممكن أن نتحدث الآن.

لم تعقب «داليا»، ولم أجد أنا ما أقوله.. فاستطردت «دُنيا»:

ـ لن أعاتبك على الخيانة يا معتز، لكني فقط أريد أن أعرف السبب.

ثبتت نظراتها الغريبة نحوي فلم أجد مفرًا من الهروب منها، ولم أرد.. ارتفعت نبرة صوتها حين قالت في حدة:

ـ لماذا؟! ألم تجد أي شيء يشفع لي؟!

لم أرد مجددًا وتشاغلت بشرب الشاي؛ فالتفتت هي ناحية «داليا» وقالت ببرود:

ـ وأنت، ألا تعلمين أنه لي؟! لماذا تريدين سلب ما ليس لك؟!

ـ لم يكن لك من البداية، بل لم يكن لك أبدًا.

قهقهت «دُنيا» بصوت مرتفع، ثم قالت في سخرية:

ـ حقًا؟!

قرنت «داليا» بين حاجبيها حين قالت في حدة:

ـ ألم تسألي نفسك لمَ تزوجك من الأساس؟!

ـ أخبريني أنت!

ـ راقصة عجوز وشاب صغير، أليس هذا ما حدث؟!

تدخلت في الحديث محاولاً تهدئته:

ـ داليا، كفى.

رمتني «دُنيا» بنظرة جمدتني في مكاني ثم قالت بنبرة باردة:

ـ دعها تكمل.

ثم التفتت نحو «داليا» وقالت في تحد:

ـ أكملي، أنا أسمعك جيدًا.

صوبت «داليا» نظرات قوية نحوها ثم قالت:

ـ أنا حبه الوحيد، لم يتزوجك إلا لينساني.

ـ داليا، أرجوك توقفي.

قلتها وأنا أرجو ألا تتطور الأمور لأبعد من هذا.. لكن «دُنيا» نظرت في ساعة يدها فجأة ثم قالت:

ـ على أية حال، فات أوان الندم.

نظرت نحوها في دهشة ثم قلت متوجسًا:

ـ ماذا تقصدين؟

ـ لا شيء يا حبيبي، دقائق قليلة ولن تغادر إحدانا هذا المكان.

انتفضت «داليا» واقفة في غضب ثم صرخت:

ـ يا مجنونة! هل هذا تهديد؟!

رمقتها «دُنيا» في ازدراء ثم قالت بلا مبالاة:

ـ اهدأي يا حلوة، حاولي الاستمتاع بما بقي لك من وقت.

نظرت نحوها فرأيت صورتها تهتز أمام عيني، قلت محتدًا:

ـ دُنيا! ماذا فعلت؟!

ـ لا شيء يا حبيبي، فقط قليل من الحبوب كفيل بإنهاء حياتنا البائسة.

انتفضت من مكاني واقفًا، شعرت بدوار عاصف أصاب رأسي..

كدت أسقط على الأرض، لكني تمكنت من الحفاظ على توازني بصعوبة.. توجهت نحو المطبخ، وجدت علبتي دواء، في إحداهما قليل من الحبوب الحمراء، وفي الأخرى بضع حبات زرقاء.. أمسكتهما بغضب، وخرجت إلى الردهة.. ألقيت بهما في غضب نحو «دُنيا»، صرخت في وجهها:

ـ أنت مجنونة! ماذا فعلت؟!

قبل أن تجيب فوجئت بصراخ «داليا» الحاد، تحركت نحوها.. كانت تمسك بطنها وتصرخ ملتاعة:

ـ المجنونة يا معتز، قتلتني.

ـ داليا!

صرخت في غضب ثم التفت نحو «دُنيا» وأنا أحاول مقاومة هذا الدوار الفظيع.. كانت مرمية على أرضية الشاليه، جسدها ينتفض في عنف، يخرج من فمها سائل أبيض غريب.. هرعت نحوها، رفعتها بين ذراعي.. في وهن وضعت كفها على وجهي، تقربني منها.. حين اقتربت منها قالت هامسة:

ـ أحبك.

استكان جسدها بين ذراعي، سقطت كفها، وشخص بصرها إلى أعلى.. شعرت برغبة شديدة في البكاء، قلت:

ـ أنا آسف، انتظري أرجوك، سنذهب للمستشفى.

انتبهت على صوت مكتوم خلفي، التفت نحو «داليا».. وجدتها سقطت على الأرض، تنظر نحوي في يأس، سمعتها تقول بصوت متحشرج:

ـ ربما نلتقي هناك.

حاولت أن أتحرك نحوها، لكني فشلت.. شعرت برغبة عارمة في التقيؤ، ودارت الدنيا من حولي بسرعة كبيرة.. انقلبت السماء على الأرض، كدت أسقط في الظلام، لكني سمعت صوت بكائها.. هتفت بصوت واهن: «حياة»..

ـ هناك سيدة ترغب في رؤيتك، هل تمانع؟

انتبهت على هذه العبارة.. واستطرد قائلها بنبرة ودية:

ـ كانت تأتي لرؤيتك كل يوم.

أومأت برأسي مستسلمًا، رغم عدم علمي بشخصية المتحدث أو الزائرة، ومسحت الدموع عن وجهي سريعًا..

ـ حمدًا لله على سلامتك.

تعجبت من نبرتها الصادقة؛ فقلت على الفور:

ـ سهر! كيف أحوالك؟

ـ بخير ما دمت أنت بخير.

أنهت عبارتها ثم أخذت تنشج بالبكاء، ارتمت عند قدميّ الممدودتين فوق السرير المعدني.. حاولت الاعتدال للتربيت عليها، لكن ألمًا فظيعًا في رأسي منعني من الحركة.. فقلت:

ـ لم البكاء؟!

ـ كنت أخشى أن أفقدك.

ـ لكني الآن بخير.

ـ حقًا؟!

ابتسمت ولم أرد، هززت رأسي هزة خفيفة.. استطردت هي على الفور:

ـ إذن فلنغادر هذا المكان فورًا.

ـ لا أعلم.

ـ سآخذك معي.

ـ معك؟!

ـ تركت العمل في اللوتس، سأتفرغ لك.

ـ لكني لا أحسب ذلك...

قاطعتني برجاء:

ـ سأكون تحت قدميك، وستعود كاتبًا عظيمًا كما كنت.

ـ أظنه أمرًا صعبًا.

ـ سأنهي الإجراءات سريعًا.

سمعت صوت كعب حذائها يدق على أرضية الغرفة حين غادرت.. لم أعرف أيتحتم على الرضوخ لطلبها، أم يجب أن أكون وحدي.. حسمت أمري سريعًا؛ فأنا لم أعد كما كنت.. أصبحت أحتاج لرعاية دائمة، صرت محتاجًا لمن يرافقني دومًا..

لم تطل غيبتها وسمعت وقع كعب حذائها، يدق فوق أرضية المستشفى قادمًا نحوي.. اقتربت مني ثم طبعت قبلة على جبهتي، أمسكت بيدي تعينني على الوقوف..

ـ انتظر حتى أحضر لك ثيابك.

بقيت ثابتًا لا أتحرك، منتظرًا أن تحضر «سهر» ملابسي.. كيف أتحرك من مكاني وأنا لم أعد أرى شيئًا..

كيف أخطو خطوة واحدة بعد أن صرت أعمى..

* * *

(٢٠)

سمعت صوت توقف عجلات السيارة، وبابها يفتح ثم يغلق سريعًا.. لحظات وسمعت صوت فتح الباب جواري، و«سهر» تقول بنبرة حزينة:

ـ وصلنا.

مددت يدي أتحسس الطريق، لكن «سهر» أمسكت بها تعينني.. سحبتني فتبعتها متلمسًا بقدمي حصى الطريق.. فترة وجيزة ثم سمعت صوتًا بدا لي مألوفًا:

ـ حمدا لله على سلامتك يا أستاذ معتز.

أومأت برأسي محييًا عم «جابر» حارس مقابر عائلة أبي، واستكملت طريقي مسحوبًا خلف «سهر»..

ـ احترس، هناك عتبة.

استجبت لتعليمات «سهر»، مددت قدمي بحذر حتى اجتزت العتبة..

رائحة غريبة أزكمت أنفي، لم أستطع تمييزها بادئ الأمر.. لكني الآن أكاد أجزم أنها كانت رائحة أمي، لا بل كانت رائحة أمي وأبي معًا.. رائحة مزيج بصورة عجيبة، اشتقت لها كثيرًا.. سمعت اقتراب خطوات كثيرة من حولنا، وصوت أجش يقول بلكنة ريفية واضحة:

ـ نقرأ يا ست هانم؟

لم أسمع «سهر» تجيبهم؛ فهززت رأسي لها موافقًا.. نزلت على ركبتي، وتلمست كفي شاهد القبر.. ارتفعت أصوات المقرئين حولي تردد آيات من سورة «يس»، كانت أصواتهم كموج بحر ارتفع مده ثم سحبني جزره فجأة فغبت عن كل ما حولي..

كنت جاثيًا على ركبتي بجوار جسد «دُنيا»، أكاد يغشى عليّ.. ثم تذكرت حين أخذت أركض في الشاليه كالمجنون، قدماي لا تكادان تقويان على حملي، أبحث عن «حياة» بعد أن سمعت صوت بكائها.. وجدتها في الغرفة التي كنا ننام بها أنا و«دُنيا».. اقتربت منها وأنا لا أكاد أرى شيئًا، كانت رؤيتي مشوشة لدرجة كبيرة.. لا أرى إلا مجرد خيالات وأطياف مهتزة.. اقتربت من موضع صوتها، كانت تبكي بحرقة.. قربت رأسي من وجهها، حاولت أن أسمع صوت تنفسها، لم يكن بكاؤها كافيًا لي للتأكد من أنها حية..

حملتها برفق، ربما للمرة الأولى أشعر بالذنب يطعن صدري.. ماذا سأخبرها حين تكبر، تناسيت تمامًا مرضها وإعاقتها.. نظرت نحوي ببراءة؛ فشعرت كأنها تلومني.. انخرطت معها في البكاء، وبعد فترة لم أعلم عدتها تمالكت نفسي.. حدثتها، لا أعلم السبب، كنت أعلم في قرارة نفسي أنها تفهمني:

«لا تخافي، ماما حية.. سنذهب للمستشفى فورًا»..

حملتها بين ذراعي وذهبت بها إلى الردهة، كانت «دُنيا» و«داليا» ما زالتا ممددتين على الأرض.. وضعت «حياة» بجوار أمها فأخذت تداعب وجهها ويدها، كأنها توقظها.. وتوجهت نحو «داليا»، كان جسدها مطروحًا على الأرض في استسلام.. حملتها بمشقة، ثم تحركت بها نحو السيارة.. كانت قواي خائرة بصورة كبيرة، لكني كنت أتحامل على نفسي.. بكاء «حياة» هو ما كان يمدني بالقوة.. أجلست «داليا» على الأريكة الخلفية لسيارتي، وعدت من جديد إلى الشاليه.. حملت «دُنيا» بين ذراعي، وأجلستها بجوار «داليا».. ثم أحضرت «حياة» ووضعتها على المقعد المجاور لي، بعد أن ربطت حولها حزام الأمان..

انطلقت بأقصى سرعة متجهًا إلى السويس، كان عقلي يعمل بأقصى سرعة رغم ذلك الضباب الكثيف الذي يكتنفه.. لم أكن أرى الطريق جيدًا، كنت أقود كالأعمى، لكن تدفعني لمواصلة الطريق غريزة البقاء ورغبتي في إنقاذهما..

وصلت مستشفى السويس العام، اندفعت مسرعًا نحو قسم الطوارئ.. تعثرت قدماي في سلم المدخل، لكني وصلت في النهاية.. أخذت أصرخ كالمجنون طالبًا العون، جاءني طبيب شاب يعمل في وردية الليل.. كان النعاس والكسل باديين على محياه.. أخبرته أن يتبعني إلى السيارة، ففعل ببلادة واضحة.. اقترب من الأريكة حيث أجلستهما، فتغيرت ملامح وجهه على الفور.. تمالك نفسه سريعًا، واقترب منهما.. وضع إصبعين على عنقهما ثم قال بنبرة باردة:

ـ شد حيلك.

نظرت نحوه كالأبله، ثم نظرت ناحية «حياة».. تمتمت في شرود:

ـ أشد حيلي!

ـ هل كانتا تتعاطيان شيئًا؟

أفقت على سؤاله الغبي؛ فصرخت فيه:

ـ يجب أن تنقذهما، تحرك.

ـ سنتصل بالشرطة.

ـ لا وقت أرجوك.

ـ آسف، لن نتمكن من استقبالهما.

قالها ثم رفع صوته مناديًا على شخص لم أتبين اسمه:

ـ اتصل بالشرطة فورًا.

لم أدر ما حدث وقتها، لكني أذكر أني دفعته بعيدًا عن السيارة.. وانزلقت داخلها بسرعة، أدرت المحرك وانطلقت بها نحو القاهرة.. علا صوت بكاء «حياة» من جديد، التفت نحوها قائلاً من بين دموعي:

ـ ماما حية، لا تخافي..

نظرت في المرآة فشاهدت «دُنيا»، ورأسها مائل إلى الخلف قليلاً.. ورأس «داليا» مسنود على كتفها.. ضغطت قدمي على دواسة البنزين بقوة شديدة؛ فعلا صوت الموتور.. لم أعد أسمع سوى صوت الرياح

القوية خارج السيارة.. اهتزت عجلة القيادة بين يدي قليلاً فانحرفت بنا السيارة، لكني تمالكت زمام الأمور سريعًا.. نظرت نحو المرآة فوجدت رأس «دُنيا» معتدلاً، كأنها تنظر إليّ.. سمعت صوتها يقول:

ـ هل سنلحق؟!

أجبتها دون تردد:

ـ لا تقلقي، سنذهب لمستشفى أخرى.

غابت كل الأشياء من حولي حين سمعت صوت «داليا»:

ـ معتز، فات الوقت.

قلت بإصرار وأنا أزيد من سرعة السيارة:

ـ لا تقولي ذلك، أرجوك.

«ستنجوان، سأنقذكما لا تخافا..»

فجأة وجدت السيارة تنحرف بقوة ناحية اليمين، حاولت السيطرة عليها فانحرفت بشدة ناحية اليسار.. توقف الزمن لحظتها، كل شيء كأنه قد تجمد في مكانه.. لم أعد أرى أمامي سوى العازل الإسمنتي للطريق، يقترب منا بسرعة منخفضة للغاية.. كل شيء كأنه كان مشهدًا سينمائيًا بالحركة البطيئة، وأنا عاجز عن التصرف..

صوت ارتطام هائل، عاد معه الزمن إلى حركته الطبيعية.. بدأ كل شيء من حولي يدور بسرعة مخيفة، كل الصور من حولي تدور وتتداخل في بعضها.. كان آخر ما رأته عيناي قبل أن أفقد بصري، حين اختلست نظرة في المرآة، كانتا «دُنيا» و«داليا»..

كان رأس «داليا» مائلاً إلى الخلف، و«دُنيا» تسند رأسها على كتفها..

ـ المقرئون انتهوا، هل تريد منهم شيئًا آخر؟

انتبهت على صوت «سهر»، لكني تجاهلتها ولم أرد.. وقفت ببطء ثم استدرت محاولاً تلمس طريقي نحو باب المدفن.. شعرت بيدها تحاول الإمساك بي لتدلني، لكني أبعدتها برفق.. كنت أشعر بالدموع تنهمر ساخنة على وجهي، سمعت صوت «سهر» يقول باكيًا:

ـ معتز، إلى أين؟!

مددت ذراعي أمامي أتلمس طريقي وسط المقابر.. لم أعد أبالي بأي شيء، أريد فقط أن أكون وحدي وسط هذا السكون الرائع..

«كلا لست وحدي، كلهم حولي هنا»..

تمت

القاهرة في ٢٣ أغسطس ٢٠١٧
منتصر أمين

أعمال الكاتب

رواية **الطواف** (٢٠١٤)

رواية **يحيى.. صحف أخرى** (٢٠١٦)

رواية **شتاء أخير** (٢٠١٧)

للتواصل مع الكاتب:

https://www.facebook.com/montasser.m.amin
montassermagdyamin@gmail.com